المبحث السابع عشر
في إعجاز القرآن وما يتعلق به

إعجاز القرآن مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به. ولكن التعجيز المذكور ليس مقصوداً لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صدق، وكذلك الشأن في كل معجزات الأنبياء، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن للازمه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله، فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات، إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر، لحكمة عالية، وهي إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة.

ولقد تناولنا في المبحث الثالث من هذا الكتاب، الكلام على المعجزة ما هي؟ وعلى الفرق بينها وبين السحر وغيره، وعلى وجه دلالتها على تأييد الحق وتصديق الرسل، مع ضرب الأمثال ونقض الشبهات. فارجع إلى ذلك هناك (ص ٥٦ ـ ٨٤ من الجزء الأول).

وقبل أن نخوض في موضوعنا هذا، ننبهك إلى أننا سنخص سيدنا محمد ﷺ بالذكر في نفي نسبة القرآن إليه، وذلك للتنصيص من أول الأمر على ما يشبه محل النزاع أو موضع الاشتباه عند كثير من أشباه الناس، ولأنه إذا كانت طبيعة القرآن تأبى أن ينسب إلى أفضل الخلق على أنه من تأليفه، فأحر بها أن تأبى نسبته إلى غيره بالطريق الأولى.

ومتى سلم الدليل على أن القرآن كلام الله وحده، سلمت نبوة نبي الإسلام، وسلم كل ما جاء به القرآن؛ وسلم الإسلام كله بل سلمت الأديان الصحيحة والكتب

الإلٰهية كلها؛ لأنه لم يبق على وجه الأرض شاهد مقبول الشهادة إلا هذا الكتاب الذي أنزله الله مقرراً لنبوة الأنبياء السابقين وأديانهم، ومصححاً لأغلاط اللاغطين فيها والمحرفين له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(١).

الله أكبر؛ إن دينَ محمد وكتابَه أهدى وأقومُ قيلا
لا تذكروا الكتُبَ السوالفَ عنده طلع الصباحُ فأطفىء القِنديلا

وجوه إعجاز القرآن

الناظر في هذا الكتاب الكريم بإنصاف، تتراءى له وجوه كثيرة مختلفة من الإعجاز، كما تتراءى للناظر إلى قطعة من الماس ألوان عجيبة معددة بتعدد ما فيها من زوايا وأضلاع، ومختلفة باختلاف ما يكون عليه الناظر وما تكون عليه قطعة الماس من الأوضاع، وسنبدأ بما نراه سليماً من المطاعن، ثم نقفي بما لا يسلم في نظرنا من طعن.

الوجه الأول: لغته وأسلوبه

أما الوجه الأول فلغته وأسلوبه، على نحو ما فصلناه في المبحث السابق. وبيان ذلك أن القرآن جاء بهذا الأسلوب الرائع الخلاب، الذي اشتمل على تلك الخصائص العليا التي تحدثنا عنها والتي لم تجتمع بل لم توجد خاصة واحدة منها في كلام على نحو ما وجدت في القرآن وكل ما كان من هذا القبيل فهو لا شك معجز، خصوصاً أن النبي ﷺ تحدى به، فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية! وإذا كان أهل الصناعة وهؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن، فغيرهم أشد عجزاً وأفحش عياً.

وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا، أدوار

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

مختلفة بين علو ونزول، واتساع وانقباض، وحركة وجمود، وحضارة وبداوة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في علياته، يطل على الجميع من سمائه، وهو يشع نوراً وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقة وجزالة، ويرف جدة وطلاوة، ولا يزال كما كان غضاً طرياً يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة قائلاً في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز وصولته: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[(١)].

القدر المعجز من القرآن:

ومن عجيب أمر هذا القرآن وأمر هؤلاء العرب، أنه طاولهم في المعارضة، وتنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم على رغم هذه المطاولة، ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة، وهو في كل مرة من مرات هذا التحدي وهذه المطاولة، ينتقل من فوز إلى فوز، ويخرج من نصر إلى نصر:

تصور أنه قال لهم في سورة الطور أول ما تحداهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[(٢)]. فلما انقطعوا مدّ لهم في الحبل وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[(٣)]. فلما عجزوا هذه المرة أيضاً، طاولهم مرة أخرى، وأرخى لهم الحبل إلى آخره، وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[(٤)] فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر، فلم يفعلوا ولن يفعلوا، ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم، وظهر أمر الله وهم كارهون.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الطور، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.
(٣) سورة هود، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.
(٤) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

بهذا يتبين لك أن القدر المعجز من القرآن هو ما يقدر بأقصر سورة منه، وأن القائلين بأن المعجز هو كل القرآن لا بعضه وهم المعتزلة والقائلين بأن المعجز كل ما يصدق عليه أنه قرآن ولو كان أقل من سورة كل أولئك بمنأى عن الصواب، وهم محجوجون بما بين يديك من الآيات.

معارضة القرآن:

وهل أتاك نبأ الخصم إذ همّوا أن يعارضوا القرآن؟ فكان ما أتوا به باسم المعارضة، لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة مخجلة: أخجلتهم أمام الجماهير وأضحكت الجماهير منهم، فباؤوا بغضب من الله وسخط من الناس، وكان مصرعهم هنا كسباً جديداً للحق، وبرهاناً مادياً على أن القرآن كلام الله القادر وحده، لا يستطيع معارضته إنسان ولا جانٌ، ومن ارتاب فأمامه الميدان.

يذكر التاريخ أن مسيلمة الكذاب؛ زعم أنه أوحي إليه بكلام كالقرآن. ثم طلع على الناس بهذا الهذر: إن أعطيناك الجماهر. فصل لربك وجاهر. وبهذا السخف: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً. وأنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير، وأين محاكاة الببغاء من فصاحة الإنسان؟ وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة، من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية؟ وهل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل في لغته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه في ذلك؟

يقول حجة الأدب العربي، فقيدنا الرافعي عليه سحائب الرحمة: إن مسيلمة لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البيانية؛ إذ كانت هذه الناحية أوضح من أن يلتبس أمرها عليه، أو أن يستطيع تلبيسها على أحد من العرب، وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيراً في نفوسهم، ذلك أنه رأى العرب تعظم الكهان في الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذي يزعمون أنه من كلام الجن، كقولهم: يا جليج. أمر نجيح. رجل فصيح: يقول لا إله إلا الله، (البخاري في المناقب: إسلام عمر) فكذلك جعل يطبع مثل هذه الأسجاع في محاكاة القرآن، ليوهمهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد، كأنما النبوة والكهانة ضرب واحد، على أنه لم يفلح في هذه الحيلة أيضاً، فقد كان كثيرون من أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة ويقولون: إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة

حاذقاً ولا في دعوى النبوة صادقاً وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم: كذاب ربيعه أحب إلينا من صادق مصر.

ويروي التاريخ أن أبا العلاء المعري وأبا الطيب المتنبي وابن المقفع، حدثتهم نفوسهم مرة أن يعارضوا القرآن، فما كادوا يبدؤون هذه المحاولة حتى انتهوا منها بتكسير أقلامهم وتمزيق صحفهم؛ لأنهم لمسوا بأنفسهم وعورة الطريق واستحالة المحاولة. وأكبر ظني وظن الكاتبين من قبلي، أنهم كانوا يعتقدون من أعماق قلوبهم بلاغة القرآن وإعجازه من أول الأمر، وإنما أرادوا أن يضموا دليلاً جديداً إلى ما لديهم من أدلة ذاقوها بحاستهم البيانية، من باب ﴿ بَلَىٰ قَالَ فَخُذْ﴾[١]. ويا ليت شعري، إن لم يتذوق أمثال هؤلاء بلاغة القرآن وإعجازه فمن غيرهم؟!

وتحدثنا الأيام القريبة أن زعماء البهائية، والقاديانية وضعوا كتباً يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن، ثم خافوا وخجلوا أن يظهروها للناس، فأخفوها ولكن على أمل أن تتغير الظروف ويأتي على الناس زمان تروج فيه أمثال هذه السفاسف، إذا ما استحر فيهم الجهل باللغة العربية وآدابها، والدين الإسلامي وكتابه. ألا خيبهم الله وخيب ما يأملون.

في القرآن آلاف المعجزات:

علمنا من قبل أن القرآن يزيد على مائتي آية وستة آلاف آية، وعلمنا اليوم أن حبل التحدي قد طال حتى صار بسورة، وأن السورة تصدق بسورة الكوثر وهي ثلاث آيات قصار، وأن مقدارها من آية أو آيات طويلة له حكم السورة، وأن لأسلوب التنزيل سبع خواص لا توجد واحدة منها على كمالها في أي كلام آخر، كما بسطنا القول في ذلك بالمبحث الآنف... فيخلص لنا في ضوء هذه الحقائق أن القرآن مشتمل على آلاف من المعجزات لا معجزة واحدة كما يبدو لبعض السذج والسطحيين؟ وإذا أضفنا إلى هذا ما يحمل القرآن من وجوه الإعجاز التالية، تراءت لنا معجزات متنوعات شتى تجل عن الإحصاء والتعداد وسبحان من يجعل من الواحد كثرة ومن الفرد أمة! ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[٢].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[1]. ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[2] أي لكان هذا القرآن!

معجزات القرآن خالدة:

وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من هذه المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود، فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو قائم في فم الدنيا يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة بني الإنسان، ومن هذا يظهر الفرق جلياً بين معجزات نبي الإسلام ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم السلام فمعجزات محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم، وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن، لا يجدها إلى في خبر كان، ولا يسلم له شاهد بها إلا هذا القرآن؟ وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل وما صح من الأديان كافة. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[3]. وقال عز اسمه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[4].

حكمة بالغة في هذا الاختيار:

وهنا نقف هنيهة، لنعلم أن حكمة الله البالغة قضت أن تكون معجزة الإسلام باقية بجانبه تؤيده وتعززه إلى قيام الساعة، حتى لا يكون لأحد عذر في ترك هذا الدين الأخير، الذي هو خاتمة الأديان والشرائع، لذلك اختار سبحانه أن تكون معجزة الإسلام شيئاً يصلح للبقاء، فكانت دون سواها كلاماً يتلى في أذن الدهر، وحديثاً يقرأ على سمع الزمان، وكان من أسرار الإعجاز فيه بلوغه من الفصاحة والبيان مبلغاً يعجز

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

الخلق أجمعين، وكان من عدله تعالى ورحمته، أن اللغة التي صيغت بها هذه المعجزة، هي اللغة العربية دون غيرها من اللغات؛ لأن اللغة العربية حين مبعث الرسول ﷺ، كانت قد بلغت لدى الشعب العربي أوج عظمتها من الاعتناء بها، والاعتداد بالنابغين فيها، والاعتزاز بالجيد منها، وكان هذا الشعب العربي قد استكملت له حينذاك ملكة في النقد والمفاضلة، تؤهله بسهولة ويسر، للحكم على جيد الكلام وزيفه، ووضع كل كلام في درجته من العلو أو النزول، وترجع براعتهم في هذه الناحية إلى أنهم كانوا قد وقفوا عليها حياتهم، والتمسوا من ورائها عظمتهم، وعلقوا عليها آمالهم.

ولا يغيبن عنك أن هذا الشعب العربي كان مطبوعاً أيامئذٍ على الصراحة في الرأي، لا يعرف النفاق ولا الذبذبة، وكانوا فوق ذلك شجعاناً يأنفون الذل ويعافون الضيم، مهما كلفتهم سجاياهم هذه من بذل مال وسفك دم، فلما نزل القرآن لم يسع هذا الشعب الحر الصريح الأبي المتمهر في لغته، إلا أن يلقي السلاح من يده، ويخضع لسلطان هذا التنزيل وبلاغته، ويدين له ويؤمن به، عن إدراك ووجدان، بعد أن ذاق حلاوته ولمس إعجازه، وحكم بملكته العربية الناقدة وصراحته المعروفة السافرة، وشجاعته النادرة الفائقة، أن هذا الذكر الحكيم، لا يمكن أن يكون كلام مخلوق من البشر ولا غير البشر، إنما هو تنزيل من حكيم حميد.

بهذه الشهادة ينجح العالم كله:

شهادة هذا شأنها، وهذا شأن من شهد بها، جديرة أن ينجح بها العالم حين يتلقاها بالقبول، كما يتلقى بالقبول شهادة لجان التحكيم في هذا العصر، ثقة منه بأنهم فنيون يحسنون المقارنة والموازنة، واطمئناناً إلى أنهم عادلون لا يعرفون المحاباة والمداهنة، بل شهادة أولئك العرب أزكى وأطهر، وأحكم وأقوم؛ لأنها صدرت عن أعداء القرآن حين نزوله، بعد محاولات، ومصاولات، مخضتهم مخضاً عنيفاً، وأفحمتهم إفحاماً مريراً ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ.

أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي:

ومما يفيد في هذا المقام ويدفع التلبيس، أن تعرف بعد ما بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي الشريف، ولا أدل على ذلك من أن بين يدي التاريخ إلى يوم

الناس هذا آلافاً مؤلفة من كتب السنة، تملأ دور الكتب في الشرق والغرب، وتنادي كل من له إلمام وذوق في البيان العربي: أن هلم لتحس بحاستك البيانية، المدى البعيد بين أسلوبي القرآن والحديث، ولتؤمن عن وجدان بأن أسلوب التنزيل أعلى وأجل من أسلوب الأحاديث النبوية، علواً خارقاً للعادة، خارجاً عن محيط الطاقة البشرية، وإن بلغ كلام الرسول ﷺ في جودته وروعته وجلالته، ما جعله خير بيان لخير إنسان.

غير أن هذه الفوارق ـ كما قلنا ـ فوارق فنية لا يدركها إلا الذين أوتوا حظاً عظيماً من معرفة اللسان العربي والذوق العربي، ولقد نزل القرآن أول ما نزل، على أمة العرب وهم مطبوعون على اللغة الفصحى، منقطعون لإحيائها وترقيتها، وكانوا يتفاصلون بينهم بالتفوق في علو البيان وفصاحة اللسان، حتى بلغ من تقديسهم لهذا أنهم كانوا يقيمون المعارض العامة للتفاخر والتفاضل بفصيح المنظوم وبليغ المنثور، وحتى إن القبيلة كان يرفعها بيت واحد من الشعر يكون رائعاً في مدحها، ويضعها بيت يكون لاذعاً في ذمها، ولقد كان هؤلاء العرب يعرفون نبي الإسلام ويعرفون مقدرته الكلامية من قبل أن يوحى إليه، فلم يخطر ببال منصف منهم أن يقول: إن هذا القرآن كلام محمد، وذلك لما يرى من المفارقات الواضحة بين لغة القرآن ولغة الرسول عليه الصلاة والسلام.

يضاف إلى هذا أنه لم يعرف في نشأته بينهم بالخطابة ولا بالكتابة ولا بالشعر، ولم يؤثر أنه شاركهم في معارضهم وأسواقهم العامة التي كانوا يقيمونها للتسابق في البيان بل كان مقبلاً على شأنه، زاهداً في الظهور ميالاً إلى العزلة. وكل ما اشتهر به قبل النبوة أنه كان صادقاً لم يجربوا عليه كذباً، أميناً ما خان أبداً، ميمون النقيبة عالي الأخلاق علواً ممتازاً! فهل يعقل أن رجلاً سلخ عهد شبابه وكهولته على هذا النمط، يجيء في سن الشيخوخة فينافس العالم كله ويتحداه بشيء من لدنه، وهو الذي ما نافس أحداً قبل ذلك ولا تحداه، بل كان من خلقه الحياء والتواضع وعدم الاستطالة على خلق الله؟ ثم هل يتصور أن هذا الإنسان الكامل يتورع عن الكذب على الناس في صباه وشبابه وكهولته، ثم يجيء في سن الشيخوخة فيكذب أفظع الكذب على الله؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾(١).

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

ألا إن وجود القرآن كلاماً متلواً لم ينقص كلمة ولا حرفاً، لرحمةٌ واسعةٌ من الله بعباده لم تتسن لأي كتاب في أمة، غير هذا الكتاب الذي ينهل الظامئون من بحره الروي في كل عصر، ويأوي المنصفون إلى هديه الرباني في كل مصر، ويكتسب بما فيه من سمات الألوهية أتباعاً في كل أفق، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(١) ولقوله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» رواه الشيخان(٢).

الوجه الثاني: طريقة تأليفه

وبيان ذلك أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقاً منجماً على أكثر من عشرين عاماً، على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، كما تقدم بيانه في المبحث الثالث من هذا الكتاب، وكان الرسول ﷺ كلما نزل عليه نجم من تلك النجوم قال: ضعوه في مكان كذا من سورة كذا، وهو بشر لا يدري ـ طبعاً ـ ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلاً عما سينزل فيها، ثم مضى العمر الطويل والرسول على هذا العهد، وإذا القرآن كله بعد ذلك يكمل ويتم، وينتظم ويتآخى ويأتلف وينسجم، ولا يؤخذ عليه شيء من التخاذل والتفاوت، بل كان من ضروب إعجازه ما فيه من انسجام ووحدة وترابط، حتى إن الناظر فيه دون أن يعلم بتنجيم نزوله، لا يخطر على باله أنه نزل منجماً، وحتى إنك مهما أمعنت النظر وبحثت، لا تستطيع أن تجد فرقاً بين السور التي نزلت جملة والسور التي نزلت منجمة، من حيث إحكام الربط في كل منهما، فسورة البقرة مثلاً وقد نزلت بضعة وثمانين نجماً في تسع سنين(٣)، لا تجد فرقاً بينها وبين سورة الأنعام التي نزلت دفعة واحدة كما يقول الجمهور(٤) من حيث نظام المبنى ودقة المعنى وتمام الوحدة

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: (١)؛ ومسلم في كتاب: الإيمان، حديث: ٢٣٩.

(٣) وجه نزولها في تسع سنين أنها جمعت بين ما نزل في مبادىء السنة الثانية للهجرة كآيات تحويل القبلة. وآيات تشريع صوم رمضان وبين آخر القرآن نزولاً على الإطلاق وهو آية ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ التي ورد أنها نزلت قبل وفاته ﷺ بتسع ليال فقط (م).

(٤) رواه الطبراني موقوفاً على ابن عباس ورواه أبي بن كعب مرفوعاً بسند ضعيف (م).

الفنية وإذا قرأت سورة الضحى وسورة اقرأ وسورة الماعون، لا تشعر بفارق بينها وبين كثير من السور القصار مثلها من حيث الإحكام والوحدة والانسجام كذلك، على حين أن تلك السور الثلاث نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين! فقل لي بربك: هل يجوز في عقل عاقل أن يكون هذا القرآن كلام محمد أو غير محمد، مع ما علمت من هذا الانفصال الزماني البعيد بين أول ما نزل وآخره، ومع ما علمت من ارتباط كل نجم بحادثة من أحداث الزمن ووقائعه، ومع ما علمت من أن ترتيب هذه النجوم في القرآن ليس على ترتيب هذا النزول الخاضع للحدثان، بدليل أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً ـ وهو صدر سورة اقرأ ـ مدون بالمصحف في أواخره، وبدليل أن آخر ما نزل منه إطلاقاً ـ وهو آية: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾(١) ـ مدون بالمصحف في أوائله؟

إن كنت في شك من أن هذا الكتاب المحكم الرصين قد جاء في طريقة تأليفه معجزة، فاجمع أهل الدنيا يظاهر بعضهم بعضاً، واطلب إليهم أن يؤلفوا لك كتاباً في حجم سور البقرة لا في حجم سور القرآن كله، لكن على شرط أن تكون طريقة تأليفه هي الطريقة التي خضعت لها سورة البقرة، من الارتباط بأحداث الزمن ووقائعه، ومن وضع هذه النجوم مبعثرة غير مرتبة في الكتاب بترتيب الأحداث والوقائع ثم من تمام هذا الكتاب أخيراً على وحدة فنية تربط بين بداياته ونهاياته وأوساطه وسائر أجزائه؟ فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا؛ فاطلب إليهم أن يعمدوا مثلاً إلى حديث النبي ﷺ، وهو ما هو في روعته وبلاغته وطهره وسموه، وقد قاله الرسول ﷺ في أوقات مختلفة، واسألهم بعد ذلك هل في مكنتهم أن ينظموا من هذا السرد الشتيت الماثل أمامهم، كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والوحدة كالقرآن، من غير أن ينقصوا منه أو يتزيدوا عليه أو يتصرفوا فيه؟؟ ذلك ما لن يكون ولا يمكن أن يكون، ومن حاوله من الخلق فإنما يحاول العبث العابث، وسيخرج إلى الناس من هذه المحاولة بثوب مرقع، وكلام مشوش، ينقصه الترابط والانسجام، وتعوزه الوحدة والاسترسال، وتمجه الأسماع والأفهام!

إذن فالقرآن الكريم تنطق طريقة تأليفه، بأنه لا يمكن أن يكون صادراً إلا ممن له السلطان الكامل على الفلك ودورته، والعلم المحيط بالزمن وحوادثه، والبقاء السرمدي

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

حتى يبلغ مراده وينفذ مشيئته، ذلكم الله وحده الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، والذي يعلم الغيب في السمٰوات وفي الأرض، والذي لا يذوق الموت ولا تأخذه سنة ولا نوم، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

الوجه الثالث: علومه ومعارفه

وبيان ذلك أن القرآن قد اشتمل على علوم ومعارف في هداية الخلق إلى الحق، بلغت من نبالة القصد، ونصاعة الحجة وحسن الأثر وعموم النفع، مبلغاً يستحيل على محمد ـ وهو رجل أمي نشأ بين الأميين ـ أن يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعاً من علماء وأدباء وفلاسفة ومشترعين وأخلاقيين، أن يأتوا من تلقاء أنفسهم بمثلها.

هذا هو التنزيل الحكيم، تقرؤه فإذا بحر العلوم والمعارف متلاطم زاخر، وإذا روح الإصلاح فيه قوي قاهر، ثم إذا هو يجمع الكمال من أطرافه، فبينا تراه يصلح ما أفسده الفلاسفة بفلسفتهم، إذ تراه يهدم ما تردى فيه الوثنيون بشركهم، وبينا تراه يصحح ما حرفه أهل الأديان في دياناتهم، إذ تراه يقدم للإنسانية مزيجاً صالحاً من عقيدة راشدة ترفع همة العبد، وعبادة قويمة تطهر نفس الإنسان، وأخلاق عالية تؤهل المرء لأن يكون خليفة الله في الأرض، وأحكام شخصية ومدنية واجتماعية تكفل حماية المجتمع من الفوضى والفساد، وتضمن له حياة الطمأنينة والنظام والسلام والسعادة. . . ديناً قيماً يساوق الفطرة، ويوائم الطبيعة، ويشبع حاجات القلب والعقل، ويوفق بين مطالب الروح والجسد، ويؤلف بين مصالح الدين والدنيا، ويجمع بين عز الآخرة والأولى! كل ذلك في قصد واعتدال، وببراهين واضحة مقنعة تبهر العقل وتملك اللب، والكلام على هذه التفاصيل يستنفد مجلداً بل مجلدات، فلنجتزىء هنا بأمثلة وإشارات، ولنخترها في موضع العقائد التي هي واحدة في جميع أديان الله بحسب أصلها قبل التعريف، ولنتعرض في هذه الأمثلة إلى شيء من المقارنة بين تعاليم الإسلام وتعليم اليهود والنصارى على عهد نزوله، ثم إلى شيء من رد القرآن عليهم

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

وتصحيحه لأغلاطهم وفضحه لأباطيلهم، ومقصدنا من هذا قطع ألسنة خراصة، زعم أصحابها أن تعاليم القرآن استمدها محمد من بعض أهل الكتاب في عصره ثم نسبها إلى ربه، ليستمد من هذه النسبة قدسيتها ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾[1].

أ ـ أمثلة من عقيدة الإيمان بالله:

١ ـ جاء القرآن بالعقيدة في الله بيضاء نقية، نزهه فيها عن جميع النقائص، ونص على استحالة الولد وكل ما يشعر بمشابهة الخالق بالمخلوق، ووصف الله بالكمال المطلق، ونص على وحدانيته في ربوبيته ووحدانيته في ألوهيته، بمعنى أنه أحد في تدبير خلقه وأحد في استحقاقه العبادة دون غيره، ألم تر أنه يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[2] ويقول ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾[3] ويقول: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[4] ويقول: ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[5] ويقول: ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾[6] ويقول: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾[7] ويقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[8] ويقول: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[9] ويقول: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾[10]. ويقول: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١١١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.
(٦) سورة الجن، الآية: ١٨.
(٧) سورة يونس، الآيتان: ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٨) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.
(١٠) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

obeikan.com

مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾(١). ويقول: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾(٢) إلى غير ذلك وهو جد كثير.

٢ ـ وضل اليهود بعد موسى فعبدوا بعلاً، وزعموا في عهد من عهودهم ما زعمت النصارى من أن لله ابناً، وشبهوا الله تعالى بالإنسان فنعتوه بأنه تعب من خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت، وركبوا رؤوسهم فقالوا: إنه سبحانه ظهر في شكل إنسان وصارع إسرائيل فلم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه. إلى غير ذلك من أغلاطهم وفضائحهم.

٣ ـ وضل النصارى بعد عيسى، فذهبوا إلى عقيدة معقدة من التثليث وصارت كنائسهم من عهد قسطنطين كهياكل الوثنية الأول وخلعوا على رجال كهنوتهم ما هو حق الله وحده من التشريع والتحليل والتحريم، حتى تعزى بهم وثنيو العرب ورأوا أنهم أمثل من هؤلاء المسيحيين في الوثنية، ﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾(٣) ثم احتجوا على شركهم بأنهم ما سمعوا دعوة التوحيد الذي جاء به الإسلام في الملة الآخرة، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾(٤) أي النصرانية.

٤ ـ فانظر مدى البون الشاسع بين الحق الذي جاء به القرآن في هذا الباب، وبين الباطل الذي جاء به هؤلاء وهؤلاء! على أن كتاب الله لم يكتف بذلك، بل رد على أولئك المبطلين ببراهينه الساطعة وأدلته القاطعة، استمع إليه وهو يقول: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ

---

(١) سورة فاطر، الآيات: ١٣ ـ ١٥.
(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٥٦ ـ ٥٧.
(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٥٧ ـ ٥٨.
(٤) سورة صٓ، الآيتان: ٦ ـ ٧.

بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(١). ويقول:
﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ
انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾(٢) ويقول:
﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا
يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ
أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا
كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾(٣). ويقول: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ
وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾(٤) ويقول في نفي التعب
الذي افتراه اليهود على الله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا
مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾(٥) ويقول نعياً عليهم في عبادة بعل: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾(٦) ويقول نعياً عليهم في فرية
أخرى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ
يَشَاءُ ﴾(٧) ويقول في نفي البنوة التي زعموها لله هم والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ
ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٧١ ـ ١٧٢.
(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٧٥ ـ ٧٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.
(٥) سورة ق، الآية: ٣٨.
(٦) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

ب ـ أمثلة من عقيدة البعث والجزاء:

١ ـ جاء القرآن بعقيدة البعث بعد الموت واضحة شاملة للروح والجسد، عادلة لا ظلم فيها ولا محاباة، مقسطة لا شفاعة هناك بالمعنى الفاسد ولا فداء، عامة لا فضل لجنس ولا لطائفة ولا لشخص إلا بالتقوى. اقرأ إن شئت قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[2]. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾﴾[3] وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[4]. وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[5] وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[6] وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾[7].

٢ ـ وضل اليهود فزعموا أنهم الشعب المختار من بين شعوب الأرض، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة هي مدة عبادتهم العجل أربعين يوماً.

٣ ـ وضل النصارى فزعموا أيضاً أنهم أبناء الله وأحباؤه وذهبوا مذهب الهنود في كرشنة أنه قتل وصلب ليخلص الإنسان ويفديه من الخطيئة، فهو المخاص الفادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث الإلهي

(١) سورة التوبة، الآيات: ٣٠ ـ ٣٢.
(٢) سورة نوح، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.
(٣) سورة القيامة، الآيات: ٣٦ ـ ٤٠.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٥) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ـ ٨.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٢٣.
(٧) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.

الذي هو عين الأول والثالث وكل منهما عين الآخر، كذلك قال الهنود في كرشنة، ثم جاء مخرفة النصارى فتابعوهم على هذا الخيال الفاسد، الذي تأباه العقول والطباع، ولا يتفق وعدل الله وحكمته في الجزاء والمسؤولية، ولم يستطع الخابطون في هذا الضلال أن يروجوه في ضحاياهم إلا بترويضهم عليه من عهد الصغر، وتنشئتهم على سماعه واعتقاده من غير بحث ولا نظر، بل قالوا: اعتقد وأنت أعمى.

٤ ـ وضل نساك النصارى فتابعوا الهنود أيضاً، في احتقار اللذات المادية، وفي تربية النفوس على الحرمان وتعذيب الجسد، وزادوا الطين بلة فقالوا: إن البعث روحاني مجرد عن إعادة الجسم، مخدوعين بتلك النظرية الفلسفية الخاطئة وهي احتقار اللذات المادية وذمهم إياها بأنها حيوانية، وغاب عنهم أنها لا تكون نقصاً إلا إذ سخر الإنسان عقله وقواه لها، وأسرف فيها إسرافاً يشغله عن اللذات العقلية والروحية القائمة على العلم النافع والعمل الصالح، أما إذا اعتدل فيها ووفق بين المطالب الروحية والجسمية، فتلك مفخرة للإنسان وميزة لنوع الإنسان، بها صار عالماً عجيباً جمع بين روحانية الملائكة وجثمانية الحيوان والنبات، وقد خلقه الله في الدنيا مظهراً من مظاهر إبداعه واقتداره، فكيف ينقص ملكوت الآخرة هذا المظهر العجيب، على حين أن الآخرة هي دار العجائب والغرائب، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟! ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

٥ ـ وكذلك ضل متطرفة اليهود فعكسوا الأمر، وأفرطوا في حب المادة حتى أحلوا لأنفسهم جمعها من أي طريق، وبالغوا في استنزاف دماء العالم بالربا وأكل أموال الناس بالباطل وظنوا أن لا جناح عليهم إذا رزؤوا أي عنصر غريب عنهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[2].

٦ ـ ولكن القرآن قد جاء يرد هؤلاء وهؤلاء إلى جادة الاعتدال، ووقف موقفاً وسطاً يرجع إليه الغالي وينتهي إليه المقصر، فأعلن عقيدته في وضوح على نحو ما ذكرنا، وتناول أخطاءهم المذكورة بالإصلاح والتقويم فقال في معرض الرد على أنهم

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

الشعب المختار: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾[(١)] وقال في هذا المعرض أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[(٢)] وقال أيضاً: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[(٣)]. وقال في معرض الرد على فرية أنهم أبناء الله وأحباؤه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[(٤)] وقال في تفنيد ما زعموه من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[(٥)].. وقال في تكذيب ما زعموا من قتل عيسى وصلبه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[(٦)]. وقال في دحض عقيدة الفداء: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[(٧)].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٨.
(٥) سورة البقرة، الآيات: ٨٠ ـ ٨٢.
(٦) سورة النساء، الآيات: ١٥٧ ـ ١٥٩.
(٧) سورة فاطر، الآية: ١٨.

وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[1] ونزلت سورة المسد تسجل العذاب على عم من أعمام أفضل الخلق محمد ﷺ. وذكر القرآن ما ذكر في ابن نوح ولم يطب القرآن نفساً بضلالة: اعتقد وأنت أعمى، بل حث على النظر والتفكر وحاكم العقائد والتعاليم الإسلامية إلى العقول السليمة، ونعى على المقلدين تقليداً أعمى، والأمر في هذا أظهر من أن تساق له أمثلة.

وعالج القرآن شبهة احتقار اللذات المادية بالمعنى الذي أرادوه، فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾[2] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾[3] وذم الرهبانية ومبتدعيها فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ﴾[4] وعاب على اليهود خيانتهم وظلمهم للشعوب فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾[5]. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ﴾[6]. وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾[7].. إلى غير ذلك من آيات كثيرة في هذه المواضيع.

والذي نريد أن تفطن له هنا، هو أن هداية القرآن كما رأيت هداية تامة عامة،

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٨٧ ـ ٨٨.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٥) سورة آل عمران، الآيات: ٧٥ ـ ٧٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

صححت معارف الفلاسفة المكبين على البحث والنظر كما صححت معارف الأميين ومن لا ينتمي إلى العلم بسبب، وصححت أغلاط أهل الكتاب من يهود ونصارى، كما صححت أغلاط مؤلهة الحجر وعبدة الوثن، وإذن فليس يصح في الأذهان شيء إذا قيل إن هذه الهدايات القرآنية ليست وحياً من الله، وإنما هي نابعة من نفس محمد الأمي الناشىء في الأميين. وليس يصح في الأذهان شيء إذا قيل إنه ﷺ قد استقى هذه الهدايات من بعض أهل الكتاب الذين لقيهم في الجزيرة العربية، ولو صح هذا لكانوا هم أولى منه بدعوى الرسالة والنبوة، وكيف يصح هذا والقرآن هو الذي علمهم ما جهلوا من حقائق دينهم؟ وهل فاقد الشيء يعطيه؟. وحسبك ما قدمناه لك من تلك الأمثلة التي تتصل بأساس الأديان وصميم العقائد، والتي تريك بالمنظار المكبر أن القرآن جالس على كرسي الأستاذية العليا للعالم كله يعلم اليهود والنصارى وغير اليهود والنصارى، لا على مقعد التلمذة الدنيا يتلقف من هؤلاء وهؤلاء.

فإن لم يكفك ما سمعت، فدونك القرآن تصفحه وتجول في آفاقه وناهيك مثل قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾[1] ومثل قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾﴾[2].

وإن شئت أكثر من هذا فتأمل كيف أعلن الحق في صراحة أن بيانه لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه هو من مقاصده الأولى، إذ قال في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾[3] هكذا قدم أنه بيان لما اختلف فيه الكتابيون، قبل أن يقول: ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾!. وكذلك قال في سورة النمل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٩
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٤.

يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾[1].

لقد لفت القرآن نفسه أنظار الناس إلى هذه الناحية من الإعجاز وأقام الدليل على أنه كلام الله ولا يمكن أن يكون كلام محمد، إذ قال جلت حكمته في سورة العنكبوت: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[2] وإذ قال سبحانه مرة أخرى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾[3].

ويرحم الله البوصيري في قوله:

كفاك بالعلم في الأُمّيِّ مُعجزةً   في الجاهلية والتأديب في اليُتُم

صلى الله عليه وسلم، ومجد وعظم، وشرف وكرم، ورزقنا كمال الإيمان به وكمال اتّباعه، آمين.

الوجه الرابع: وفاؤه بحاجات البشر

ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة، تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر، وفاءً لا تظفر به في أي تشريع ولا في أي دين آخر ويتجلى لك هذا إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته، والتي نعرض عليك من تفاصيلها ما يأتي:

أولاً: إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

---

(١) سورة النمل، الآيات: ٧٦ ـ ٧٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ٤٧ ـ ٤٩.

(٣) سورة الشورى، الآيتان: ٥٢ ـ ٥٣.

ثانياً: إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس ويغذي الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجموع منها.

ثالثاً: إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلها وتنفيرهم من رذائلها، في قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط.

رابعاً: إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبيات وإزالة الفوارق التي تباعد بينهم، وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد من نفس واحدة ومن عائلة واحدة أبوهم آدم وأمهم حواء، وأنه لا فضل لشعب على شعب ولا لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأنهم متساوون أمام الله ودينه وتشريعه، متكافئون في الأفضلية وفي الحقوق والتبعات من غير استثناءات ولا امتيازات، وأن الإسلام عقد إخاء بينهم أقوى من إخاء النسب والعصب، وأن لسانهم العام هو لسان هذا الدين ولسان كتابه: لغة العرب. وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية ولا الفواصل السياسية والوضعية: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾[1].

خامساً: إصلاح السياسة أو الحكم الدولي، عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس، ومراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة والمواساة والمحبة، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات.

سادساً: الإصلاح المالي عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع، ووجوب إنفاقه في وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعي المشروع.

سابعاً: الإصلاح النسائي عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسان والدينية والمدنية.

ثامناً: الإصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٢.

obeikandi.com

لخير الإنسانية في مبدئها وغايتها، ووجوب التزام الرحمة فيها والوفاء بمعاهداتها، وإيثار السلم عليها، والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها.

تاسعاً: محاربة الاسترقاق في المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى، منها الترغيب العظيم في تحرير الرقاب، وجعله كفارة للقتل وللظهار، ولإفساد الصيام بطريقة فاحشة، ولليمين الحانثة، ولإيذاء المملوك باللطم أو الضرب.

عاشراً: تحرير العقول والأفكار، ومنع الإكراه والاضطهاد والسيطرة الدينية القائمة على الاستبداد والغطرسة ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾[1].

دليل على هذا الوجه من الإعجاز:

والدليل على هذا الوجه من إعجاز القرآن، أن غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يبحثون عن النور، وينقبون عما يفي بحاجتهم في كثير من نواحي حياتهم، حتى اضطروا تحت ضغط هذه الحاجة وبعد طول المطاف وقسوة التجارب، أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وإليك شواهد على ذلك:

١ ـ أمريكا حرمت الخمر أخيراً، ولكنها فشلت ولم تنجح لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التي اتبعها الإسلام في تحريم الخمر.

٢ ـ أمريكا أباحت الطلاق، وإن كانت قد أسرفت فيه إلى درجة ضارة.

٣ ـ إسبانيا أصدرت حكومتها قانوناً بمنع البغاء الرسمي في بلادها، وبمنع النساء من البروز على الشواطىء في ثياب الاستحمام.

٤ ـ مصلحو أوروبا يرفعون أصواتهم بضرورة الرجوع إلى مبدأ تعدد الزوجات، حتى بعض نسائهم طالبن بهذا.

٥ ـ اليهود يطالبون أيضاً بتعدد الزوجات وقد تزعم هذه الحركة يهودي اسمه مورشه ليكفرمان، وبرهن على أن ذلك من أحكام الدين اليهودي، وطلب إلى اليهود إلغاء قرار الحاخام غرشون الذي تعدى حدود الدين اليهودي بإبطاله الزواج بأكثر من واحدة وأصبح له أتباع كثيرون.

---

(١) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢.

٦ ـ زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها في الحرب القائمة الآن يقول: إن سبب انهيار دولتهم هو انغماسهم في الشهوات الجنسية، وإسرافهم في المفاسد والمفاتن.

الوجه الخامس: موقف القرآن من العلوم الكونية

ومعنى هذا أن القرآن روعيت فيه بالنسبة إلى العلوم الكونية اعتبارات خمسة، لا يصدر مثلها عن مخلوق، فضلاً عن رجل أمي نشأ في الأميين، وهو محمد ﷺ.

أولها: أنه لم يجعل تلك العلوم الكونية من موضوعه، وذلك لأنها خاضعة لقانون النشوء والارتقاء، وفي تفاصيلها من الدقة والخفاء ما يعلو على أفهام العامة، ثم إن أمرها بعد ذلك هين بإزاء ما يقصده القرآن من إنقاذ الإنسانية العاثرة، وهداية الثقلين إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالقرآن ـ كما أسلفنا في المبحث الأول ـ كتاب هداية وإعجاز، وعلى هذا فلا يليق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز، حتى إذا ذكر فيه شيء من الكونيات، فإنما ذلك للهداية ودلالة الخلق على الخالق، ولا يقصد القرآن مطلقاً من ذكر هذه الكونيات أن يشرح حقيقة علمية في الهيئة والفلك أو الطبيعة والكيمياء، ولا أن يحل مسألة حسابية أو معادلة جبرية أو نظرية هندسية، ولا أن يزيد في علم الطب باباً ولا في على التشريح فصلاً، ولا أن يتحدث عن علم الحيوان أو النبات أو طبقات الأرض، إلى غير ذلك.

ولكن بعض الباحثين طاب لهم أن يتوسعوا في علوم القرآن ومعارفه، فنظموا في سلكها ما بدا لهم من علوم الكون، وهم في ذلك مخطئون ومسرفون، وإن كانت نيتهم حسنة وشعورهم نبيلاً، ولكن النية والشعور مهماً حسناً لا يسوغان أن يحكي الإنسان غير الواقع، ويحمل كتاب الله على ما ليس من وظيفته، خصوصاً بعد أن أعلن الكتاب نفسه هذه الوظيفة وحددها مرات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾[1] ومنها قوله جلت حكمته. ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

ومما يجب التفطن له أن عظمة القرآن لا تتوقف على أن ننتحل له وظيفة جديدة، ولا أن نحمله مهمة ما أنزل الله بها من سلطان؛ فإن وظيفته في هداية العالم أسمى وظيفة في الوجود ومهمته في إنقاذ الإنسانية أعلى مهمة في الحياة! وما العلوم الكونية بإزاء الهدايات القرآنية؟ أليس العالم الآن يشقى بهذه العلوم ويحترب وينتحر؟ ثم أليست العلوم الكونية هي التي ترمي الناس في هذه الأيام بالمنايا وتقذفهم بالحمم، وتظهر لهم على أشكال مخيفة مزعجة، من مدافع رشاشة، ودبابات فتاكة، وطائرات أزازة، وقنابل مهلكة، وغازات محرقة ومدمرات في البر والبحر وفي الهواء والماء؟. وما أشبه هذه العلوم للإنسان بعد تجرده من هدي الله ووحي السماء، بالأنياب والمخالب للوحوش الضارية والسباع الواغلة في أديم الغبراء!!.

ثانيها: أن القرآن دعا إلى هذه العلوم في جملة ما دعا إليه من البحث والنظر، والانتفاع بما في الكون من نعم وعبر، قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١). وقال جل شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾(٢).

ثالثها: أن القرآن حين عرض لهذه الكونيات أشعرنا أنها مربوبة له تعالى ومقهورة لمراده، ونفى عنها ما علق بأذهان كثير من الضالين الذين توهموها آلهة وهي مألوهة، وزعموها ذات تأثير وسلطان بينما هي خاضعة لقدرة الله وسلطانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾(٣). وكذلك أشعرنا القرآن أنها هالكة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٤) ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾(٥) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾(٦).

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٣.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤١.
(٤) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٧.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

رابعها: أن القرآن حين يعرض لآية كونية في معرض من معارض الهداية، يتحدث عنها حديث المحيط بعلوم الكون، الخبير بأسرار السمٰوات والأرض؛ الذي لا تخفى عليه خافية في البر والبحر، ولا في النجوم والكواكب، ولا في السحاب والماء، ولا في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وذلك هو الذي بهر بعض المشتغلين بالعلوم الكونية؛ وأوقع من أوقع منهم في الإسراف واعتبار هذه العلوم من علوم القرآن.

خامسها: أن الأسلوب الذي اختاره القرآن في التعبير عن آيات الله الكونية، أسلوب بارع جمع بين البيان والإجمال في سمط واحد، بحيث يمر النظم القرآني الكريم على سامعيه في كل جيل وقبيل، فإذا هو واضح فيما سيق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله، ثم إذا هو مجمل التفاصيل، يختلف الخلق في معرفة تفاريعه ودقائقه، باختلاف ما لديهم من مواهب ووسائل وعلوم وفنون.

ولنضرب لذلك مثلاً: تلك الآية الحكيمة وهي قوله عز اسمه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1]، فإنها مرت على بني الإنسان منذ نزلت إلى الآن، ففهموا منها جميعاً أن الله تعالى يدل على قدرته وإبداعه وكماله بأنه خلق من الأشياء متنوعات مختلفة الأشكال والخصائص، لكنهم اختلفوا بعد ذلك، فالأوائل يؤثر عنهم أن الزوجين في الآية الكريمة، هما الأمران المتقابلان تقابلاً ما، لا بخصوص الذكورة والأنوثة؛ روي عن الحسن أنه فسر الزوجين بالليل والنهار والسماء والأرض، والشمس والقمر، والبر والبحر، والحياة والموت، وهكذا عدد أشياء وقال كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثيل له.. أما المتأخرون ففهموا أن الزوجين في الآية، هما الأمران المتقابلان بالذكورة والأنوثة، ويقولون: إنه ما من شيء في الوجود إلا منه الذكر والأنثى، سواء في ذلك الإنسان والحيوان والجماد وغيرها مما لا تعلم ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2]. ويقولون: إن أحدث نظرية في أصول الأكوان تقرر أن أصول جميع الكائنات تتكون من زوجين اثنين، وبلسان العلم الحديث «الكترون وبروتون».

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.
(٢) سورة يس، الآية: ٣٦.

ولا أحب أن نتوسع في هذا، فبين أيدينا أمثلة كثيرة ومؤلفات جمة، تموج وتضطرب باستنباط علوم الكون من القرآن، أو بتفسير القرآن وشرحه بعلوم الكون، وأحدثها فيما أعلم كتاب تحت الطبع الآن ألفه شاب فاضل مثقف وسماه «بين القرآن والعلم» وضمنه شتيتاً من الأبحاث المختلفة في الاجتماع وعلم النفس وعلم الوراثة والزراعة والتغذية وفيما وراء الطبيعة، مما لا يتسع المقام لذكره، ومما لا نرى حاجة إليه، خصوصاً بعد أن تبين لنا أن العلوم الكونية خاضعة لطبيعة الجزر والمد، وأن أبحاثاً كثيرة منها لا تزال قلقة حائرة بين إثبات ونفي، فما قاله علماء الهيئة بالأمس ينقضه علماء الهيئة اليوم، وما قرره علماء الطبيعة في الماضي يقرر غيره علماء الطبيعة في الحاضر، وما أثبته المؤرخون قديماً ينفيه المؤرخون حديثاً، وما أنكره الماديون وأسرفوا في إنكاره باسم العلم، أصبحوا يثبتونه ويسرفون في إثباته باسم العلم أيضاً، إلى غير ذلك مما زعزع ثقتنا بما يسمونه العلم، ومما جعلنا لا نطمئن إلى كل ما قرروه باسم هذا العلم، حتى لقد ظهر في عالم المطبوعات كتاب خطير من مصدر علمي محترم عندهم، له خطورته وجلالته وشأنه، فصدع هذا الكتاب بناء علمهم وزلزل أركان الثقة به، بعد أن نقض بالدليل والبرهان كثيراً من المقرارت والمسلمات التي يزعمونها يقينية، ثم انتهى بقارئه إلى أن هذا الكون غامض متغلغل في الغموض والخفاء، ومن هنا سمى تأليفه: «الكون الغامض»، وهذا المؤلف هو السير جيمس جينز.

فهل يليق ـ بعد ذلك كله ـ أن نبقى مخدوعين مغرورين بعلمهم الذي اصطلحوا عليه وتحاكموا إليه، وقد سجنوه وسجنوا أنفسهم معه في سجن ضيق هو دائرة المادة، تلك الدائرة المسجونة هي أيضاً في حدود ما تفهم عقولهم وتصل تجاربهم، وقد تكون عقولهم خاطئة وتجاربهم فاشلة؟؟! ثم هل يليق بعد ذلك كله أن نحاكم القرآن إلى هذه العلوم المادية القلقة الحائرة بينما القرآن هو تلك الحقائق الإلٰهية العلوية القارة الثابتة، المتنزلة من أفق الحق الأعلى الذي يعلم السر وأخفى؟!

ألا إن القرآن لا يفر من وجه العلم، ولكنه يهفو إلى العلم ويدعو إليه ويقيم بناءه عليه، فأثبتوا العلم أولاً ووفروا له الثقة وحققوه، ثم اطلبوه في القرآن فإنكم لا شك يومئذ واجدوه، وليس من الحكمة ولا الإنصاف في شيء أن نحاكم المعارف العليا إلى

المعارف الدنيا، ولا أن نحبس القرآن في هذا القفص الضيق الذي انحبست فيه طائفة مخدوعة من البشر، بل الواجب أن نتحرر من أغلال هذه المادة المظلمة، وأن نطير في سمٰوات القرآن حيث نستشرف المعارف النورانية المطلقة، والحقائق الإلٰهية المشرقة، وأن نوجه اهتمامنا دائماً إلى استجلاء عظات هذا التنزيل وهداياته الفائقة، وألا نقطع برأي في تفاصيل ما يعرض له القرآن من الكونيات إلا إن كان لنا عليه دليل وبرهان لا شك فيه ولا نكران، وإلا وجب أن نتوقف عن هذه التفاصيل، ونكِلَ علمها إلى العالم الخبير، قائلين ما قالت الملائكة حين أظهر الله لهم على لسان آدم ما لم يكونوا يحتسبون: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[1].

كلمة في الموضوع:

والآن يروقني أن أنقل لك مقتطفات قيمة للعلامة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش في هذا الموضوع لكن بتصرف قليل:

١ ـ ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث في الشؤون الكونية والمسائل العلمية والفنية، على النحو المألوف في الكتب الخاصة الموضوعة فيها.

٢ ـ لما جاء القرآن الكريم كان في جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطىء بالكونيات أضعاف ما كان منها لدى بني إسرائيل عندما أخرجهم موسى ﷺ من مصر، فكان من الحكمة الإلٰهية أن يتنزل على محمد ﷺ في سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ما تنزل على موسى في سفر التكوين... والحكمة البالغة في ذلك أن الدعوة إلى توحيد الخالق وتقرير الحق من العقائد وقبول ما يلي ذلك من الشرائع والأخلاق، ما كانت لتجد سبيلها إلى قلوب عرفت للأجرام العلوية في ألوهيتها وتزاوجها وما كان من أثرها في تكوين هذه الكائنات ونظامها، ما قررته العقلية القديمة في بلاد مصر والإغريق، وما بثته في جزيرة العرب وما حولها أساطير الأشوريين والبابليين والكلدانيين، إذن كان لزاماً أن يسترعي القرآن انتباه الناس إلى وجه الخطأ في عقائدهم، وأن يشككهم في الباطل الذي اتبعوه، لأنهم وجدوا عليه آباءهم، وأن يطلقهم بذلك من الحجر الذي أشقاهم وألحقهم بالأنعام من الحيوان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

٣ ـ كانت إذن مهمة القرآن الحكيم التي أرادها لتمهيد السبيل إلى التعريف بالخالق جل شأنه، أن يعين للعقول بضرب الأمثال، لِمَ تفكر؟ وفيم تفكر؟ وكيف تفكر؟ فهو في جهاده هذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كي يملأها الرسام بما يلزم لها من الألوان والظلال ومعالم الجمال.

٤ ـ لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال، في بيان بعض غوامض الحقائق الكونية، بل جاء في ذلك بحقائق أمر الأميين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها، كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوه الصواب فيها، ثم نصح الفريقين أن يعترفا بعجز عقولهم وألا يقطعا بشيء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيهم، بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور؛ ويسألون أهل الذكر فيما لا يعلمون، أو يَكِلُون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

٥ ـ أن المسيحيين حيثما ثاروا في وجه العلم ونظام الحكم ثوراتهم التجديدية في أوروبة، لم يكونوا ليشبهوا في شيء من مواقفهم تلك أحداً من الشعوب الإسلامية، فإنما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم الدموية، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان، وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استيضاح ما غمض عليهم منهم. ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها، ولو اعتمد في رأيه على الحس والمعاينة، حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرمونيني اللذان رفضا أن ينظرا إلى السماء بالآلة المقربة (تلسكوب) وقد روي عن غاليلو أن من تلاميذ المذهب الأرصطاطالي من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل، وأنهم كانوا يعتبرون فلسفة أرسطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك، إذا نقض منها حجر انهار سائر بنيانها على أثره، فكان ذلك مغالاتهم في التمسك بها والحرص عليها مجتمعة.

ثم قال في تعدد الأرضين:

لم يذكر القدماء شيئاً في أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سيناء عن قدماء حكماء الفرس من أن هناك أراضي كثيرة غير أرضنا، وما زال الرأي السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة، يقول بعدم تعددها، حتى جاء غاليلو المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره

المكبرة والمقربة وكذلك من جاؤوا بعده، فأثبتوا بمشاهداتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والخلائق والعمران. ولم يعتمدوا في هذا التجويز إلا على الحدس والظن، فإن مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد.

أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين في آية ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾(١) ففي تفسير أبي السعود ـ من مفسري القرن التاسع للهجرة ـ أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض، وفي تفسير النيسابوري أنها سبع أرضين ما بين كل واحدة منها إلى الأخرى مسيرة خمسمئة(٢) عام وفي كل أرض منها خلق ـ إلى أن قال ـ وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها ومن أصرح الآيات في أن السيارات أراض مأهولة آية الشورى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾(٣) إذ المراد بالسموات هنا السيارات على ما يأتي لنا من التأويل. ومن الآيات البينة في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾(٤).

ومن قصرت عقولهم استبعدوا وجود الحيوان في الأجرام السماوية، ولكن نَفَى الزمخشريُّ والبيضاوي وغيرهما استبعاد أن يخلقَ الله فيها صنوفاً من الحيوان يمشون فيها مَشْيَ الإنسان على الأرض؛ فالله خلق كما قالوا: ما نعلم وما لا نعلم. اهـ ما أردنا نقله.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٢) مسألة تقدير المسافات التي بين السيارات مثلاً بمسير خمسمئة عام يفسرها الشهرستاني بالدابة تسير فرسخاً إسلامياً في كل ساعة على ما هو المعروف ومصطلح عليه في سائر الكتب الإسلامية، مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ ميلاً تقريباً. وهو قريب جداً من تقديرات المتأخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الأستاذ الشهرستاني في كتابه المسمى «الهيئة والإسلام» ص: ٩٠ ج أول. ومما يجدر ذكره أن الشهرستاني هذا ليس هو صاحب الملل والنحل بل هو أحد مجتهدي الشيعة المعاصرين لنا، واسمه هبة الله (م).

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

الوجه السادس: سياسته في الإصلاح

ومعنى هذا أن القرآن انتهج طريقاً عجيباً في إصلاحه، وسلك سياسة حكيمة وصل بها من مكان قريب إلى ما أراد من هداية الخلق، فتذرع بجميع الوسائل المؤدية إلى نجاح هذا الإصلاح الوافي بكل ما يحتاج إليه البشر، مما يدل بوضوح على أن القرآن في سياسته هذه لا يمكن أن يصدر عن نفس محمد ولا غير محمد.

وبيان ذلك من وجوه:

أولها: مجيء هذا الكتاب منجماً، ومخالفته بذلك سائر كتب الله الإلٰهية، بعداً بالناس عن الطفرة، وتيسيراً لتلقيهم إياه وقبولهم ما جاء به، على نحو ما بينا في أسرار التنجيم بالمبحث الثالث من هذا الكتاب.

ثانيها: مجيء هذا الكتاب بذلك الأسلوب الشيق الرائع الحبيب إلى نفوسهم، ليكون لهم من هذا الأسلوب دافع إلى الإقبال عليه والاستئناس بما جاء من تعاليمه وإن كانت مخالفة لما مردوا عليه من قبل.

ثالثها: مجيء هذا الكتاب على غير المعهود في تأليف القوانين والعلوم والفنون والآداب، من بناء تقسيمها وتبويبها على الموضوعات بحيث يختص كل باب من الكتاب بموضوع معين، ويختص كل فصل من فصول هذا الباب بمسألة أو مسائل وهكذا، فأنت تجد في الغالب كل سورة من سور القرآن جامعة لمزيج من مقاصد وموضوعات، يشعر الناظر فيها بمتعة ولذة؛ كلما تنقل بين هذه المقاصد في السورة الواحدة، كما يشعر الآكل باللذة والمتعة كلما وجد ألواناً شتى من الأطعمة على المائدة الواحدة، وإذن ففي هذا النمط الذي اختاره القرآن فائدتان: دفع السأم والملل عن الناظر في هذا الكتاب، وانقياد النفوس إلى هداياته بلباقة من حيث لا تحس بغضاضة، يضاف إلى هذا ما نلمحه من الوحدة الفنية في السورة أو القطعة الواحدة، ومن وفاء القرآن بجميع الاصطلاحات البشرية، على رغم هذا الانتشار القاضي في العادة بعدم الانسجام بفوات شيء أو أشياء من مقاصد التأليف وأغراض المؤلفين، حتى ليبدو ذلك وجهاً جديداً من وجوه الإعجاز، يؤمن به عن خبرة وإحساس كل من ابتلي بتأليف أو مزاولة آثار المؤلفين!

رابعها: تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة، حتى يجد سبيله إلى النفوس النافرة والطباع العصية، فتسلس له القيادة وتلقي إليه السلم، مثال ذلك تقرير القرآن لعقيدة التوحيد واستئصاله لشأفة الشرك، بوساطة الحديث عنهما مراراً وتكراراً: تارة يصرح وأخرى يلوح. وتارة يوجز وأخرى يطنب، وتارة يذكر العقيدة مرسلة وأخرى يذكرها مدللة، وتارة يشفعها بدليل واحد وأخرى بجملة أدلة، وتارة يضرب لها الأمثال وأخرى يسوق فيها القصص، وتارة يقرنها بالوعد وأخرى بالوعيد، وهلم.

خامسها: مخاطبته العقول والأفكار، ودعوته إلى أعمال النظر وطلب الدليل والبرهان، ونعيه على من أهملوا العقول واستمرؤوا التقليد الأعمى، وركنوا إلى الجمود. اقرأ قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[1] ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[2]. وقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3] وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[4].

وهكذا كثيراً ما نسمع في القرآن أمثال قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾[5] ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[6] ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾[7] ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[8] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[9] ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) سورة لقمان، الآية: ٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٥) سورة السجدة، الآية: ٢٦.
(٦) سورة الحاقة، الآية: ٤٢.
(٧) سورة المنافقون، الآية: ٤.
(٨) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٩) سورة الغاشية، الآيات: ١٧ ـ ٢٠.

وَٱلْأَرْضِ﴾[١] إلى غير ذلك مما يرفع كرامة الإنسان، ويحاكم أهم الأمور حتى العقيدة في الله تعالى إلى العقول، ليصل المرء من وراء ذلك إلى اقتناع الضمير واطمئنان القلب وبرد اليقين وحرارة الإيمان!

سادسها: استغلالة الغرائز النفسية استغلالاً صالحاً بعد أن يهذبها بالدليل ويصقلها بالبرهان، هذه غريزة التقليد والمحاكاة في الإنسان مثلاً قد نأى بها القرآن عن احتذاء الأمثلة السيئة من الجهالة والفسقة، وذهب بها إلى مقام أمين من وجوب اتباع الأمثلة الطيبة والتأسي بمن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾[٢]. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾[٣] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٤]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٥].

وهذه غريزة حب البقاء والعلو في الإنسان، قد نأى بها القرآن أيضاً عن الظلم والبغي، وذهب بها إلى حيث الدفاع عن النفس والعرض والدين والوطن، وقاد بها عباد الله إلى الحق والخير، إذ وعدهم حياة ثانية فيها الخلود والبقاء، وفيها الملك الواسع والاستعلاء العادل ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾[٦].

وهكذا دخل القرآن على الناس من هذا الباب فقادهم من غرائزهم حتى ناط أوامره بمصالحهم، ونواهيه بمفاسدهم، وجعل ذلك قاعدة عامة قال فيها: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[٧]. ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٨].

وإن أردت تفصيلاً وتمثيلاً، فانظر إلى تلك المقارنة الرائعة بين المؤمن والمشرك إذ يقول سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.
(٦) سورة الإنسان، الآية: ٢٠.
(٧) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٨) سورة الإسراء، الآية: ٧.

مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾[١]. فأنت ترى في هذه الآية الكريمة أن المشرك مع معبوديه، مثله مثل عبد اشترك فيه شركاء متنازعون مختلفون، كل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في أعمال شتى، وهو متحير متعب مجهود لا يدري أيهم يرضي بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته؟ ولا يدري ممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه؟ فهمه شَعاع[٢]، وقلبه أوزاع، أما المؤمن فمثله مثل عبد له سيد واحد، فهمه واحد وقلبه مجتمع وضميره مستريح وعمله مريح: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾[٣]!

وإن أردت مثالاً ثانياً فاستمع إلى القرآن وهو يقول في فريضة الصلاة: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾[٤] إلخ. وقوله: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[٥].

وإن أردت أمثلة أخرى فاقرأ قوله سبحانه في فرض الزكاة: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٦]. وفي فرض الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[٧]. وفي فرض الحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾[٨] إلخ. وفي عموم الإيمان والعمل الصالح، ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[٩].

سابعها: ترتيبه الأوامر والنواهي ترتيباً يسع جميع الناس، على تفاوت استعدادهم ومواهبهم، فالأوامر الدينية درجات: هذا إيمان، وهذا إسلام، وهذا ركن، وهذا فرض

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٩.
(٢) شعاع: متفرق.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٩.
(٤) سورة المعارج، الآيات: ١٩ ـ ٢٢.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٦) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.
(٨) سورة الحج، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨.
(٩) سورة النحل، الآية: ٩٧.

وهذا واجب، وهذا مندوب مؤكد، هذا مندوب غير مؤكد، والمناهي كذلك درجات: هذا نفاق، وهذا شرك، وهذا كفر، وهذه كبيرة وهذه صغيرة، وهذا مكروه تحريماً، وهذا مكروه تنزيهاً. وما وراء هذه الأوامر والنواهي فمباحات، لكل أن يأخذ وأن يدع منها ما شاء. ولا ريب أن وضع التشريع على هذا الوجه، فيه متسع للجميع وفيه إغراء للنفوس الضعيفة أن تتشرف باعتناق الإسلام ولو في أدنى درجة من درجاته، حتى إذا أنست به وذاقت حلاوته، تدرجت في مدارج الرقي، فمن إيمان إلى إسلام إلى أداء ركن إلى أداء فرض إلى أداء واجب إلى أداء مندوب مؤكد إلى أداء مندوب غير مؤكد، ومن ترك نفاق إلى ترك شرك وكفر إلى ترك كبيرة إلى ترك صغيرة إلى ترك مكروه تحريماً إلى ترك مكروه تنزيهاً إلى ترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، ومن مجرد أداء للنوافل إلى زيادة فيها وإكثار منها، حتى يصل العبد إلى ذلك المقام الذي جاء فيه عن الله تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به؛ ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه» رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه.

على ضوء هذه السياسة الشرعية الحكيمة التي نزل بها القرآن، كان ﷺ يتدرج بالأقوام رويداً رويداً كما كان يتساهل معهم تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم إلى اعتناق الدين على أي وجه، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد[(١)] بسنده عن نصر بن عاصم الليثي عن رجل منهم أنه أتى النبي ﷺ فأسلم على أن يصلي صلاتين ـ لا خمساً ـ فقبل منه وجاء في رواية أخرى: على ألا يصلي إلا صلاة فقبل. وعن وهب قال: سألت جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت فقال: اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي ﷺ يقول بعد ذلك «سيتصدقون ويجاهدون» رواه أبو داود[(٢)]. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال أجدني كارهاً. قال: «أسلم وإن كنت كارهاً»[(٣)] رواه أحمد. قال الشوكاني في نيل الأوطار بعد أن سرد هذه الأحاديث: فيها

(١) مسند الإمام أحمد: ٥/٢٥.
(٢) رواه أبو داود في كتاب: الإمارة، باب: (٢٦)؛ وأحمد: ٣/٣٤١.
(٣) مسند الإمام أحمد ٣/١٠٩.

دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الإسلام منه وإن شرط شرطاً باطلاً.

والمراقب لنزول القرآن وسير التشريع الإسلامي، ويرى من مظاهر هذه السياسة البارعة المعجزة شيئاً كثيراً، وحسبك أن يبتدىء الأمر بتقرير عقيدة التوحيد، وألا تفرض الصلوات الخمس إلا بعد عشر سنوات تقريباً من البعثة، ثم سائر العبادات بعضها تلو بعض، أما المعاملات فلم يستبحر الأمر فيها إلا بعد الهجرة، وقل مثل ذلك في المنهيات، ولعلك لم تنس التدرج الإلٰهي الحكيم في تحريم الخمر.

ثامنها: مجيء القرآن بمطالب الروح والجسد جميعاً، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، وفي ذلك آيات كثيرة تقدم التنويه بها في مناسبات أخرى، من أجلها كان المسلمون أمة وسطاً بين من تغلب عليهم المادية والحظوظ الجسدية كاليهود، ومن تغلب عليهم النواحي الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس كالهندوس والنصارى في تعاليمهم، وإن خالفتها الكثرة الغامرة منهم.

تاسعها: مجيء القرآن بمطالب الدنيا والآخرة جميعاً، عن طريق التزام تعاليمه وهداياته التي أجملنا مقاصدها فيما سبق، لا عن طريق الاعتقادات الخاطئة والأماني الكاذبة والتواكل وترك العمل، والآيات في هذا المعنى أظهر من أن تذكر.

عاشرها: مجيء القرآن بالتيسير ورفع الحرج عن الناس: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾[2] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3]. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[4]. ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾[5]. ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[6] وهذا باب واسع وضع منه علماؤنا قواعد عامة كقولهم: المشقة تجلب

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٦) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

التيسير، والضرورات تبيح المحظورات. ثم فرعوا عليها فروعاً وسعت ولا تزال تسع الناس أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

الوجه السابع: أنباء الغيب فيه

ومعنى هذا أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد ﷺ بها، ولا سبيل لمثله أن يعلمها مما يدل دلالة بينة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب، لا يعقل أن يكون نابعاً من نفس محمد ولا غير محمد من الخلق، بل هو كلام علام الغيوب وقيوم الوجود، الذي يملك زمام العالم ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾(١).

ومن ذلك قصص عن الماضي البعيد المتغلغل في أحشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد إلى رؤيته ومعرفته فضلاً عن التحدث به، وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الأسباب، وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء.. وسر الإعجاز في ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف، وجاء على النحو الذي أخبر به في إجمال ما أجمل وتفصيل ما فصل، وأنه إن أخبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ، وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء، وما يجدّ في العالم من تجارب وعلوم، وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي وما تجيء به الأيام.

غيب الماضي:

أما غيوب الماضي في القرآن فكثيرة، تتمثل في تلك القصص الرائعة التي يفيض بها التنزيل، ولم يكن لعلم محمد بها من سبيل.

منها قصة نوح التي قال الله فيها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾(٢).

ومنها قصة موسى التي يقول الله فيها: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٩.

فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[١].

ومنها قصة مريم وفيها يقول الله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٢].

غيب الحاضر:

أما غيب الحاضر فنريد به ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنة والنار ونحو ذلك، مما لم يكن للرسول ﷺ سبيل إلى رؤيته ولا العلم به، فضلاً عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح، الذي أيده ما جاء به الأنبياء وكتبهم عليهم الصلاة والسلام، وأمثلة هذا الضرب كثيرة في القرآن، لا تحتاج إلى عرض ولا بيان.

ومنها أيضاً ما فضح الله به المنافقين في عصر الرسول ﷺ مما كان قائماً بهم وخفي أمره كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[٣] وكقوله في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[٤].

وسورة التوبة فيها من هذا الضرب شيء كثير.

ومن غيب الحاضر أو الماضي ما جاء في طي القرآن من حقائق ومنافع ومبادىء لم يكشف عنها إلا العلم الحديث. وسيأتي التمثيل له.

غيب المستقبل:

وأما غيب المستقبل، فنمثل له بأمثلة عشرة:

---

(١) سورة القصص، الآيات: ٤٤ ـ ٤٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.
(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٧.

obeikandi.com

المثال الأول: إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين من إعلان هذا النبأ الذي يقول الله فيه: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾[1].

وبيان ذلك أن دولة الرومان وهي مسيحية كانت قد انهزمت أمام دولة الفرس وهي وثنية، في حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤ م فاغتم المسلمون بسبب أنها هزيمة لدولة متدينة أمام دولة وثنية، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين في شماتة العدو: إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم، فنغلبكم كما غلبت فارس الروم. فنزلت الآيات الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار في بضع سنين، أي في مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع، ولم يك مظنوناً وقت هذه البشارة أن الروم تنتصر على الفرس في مثل هذه المدة الوجيزة، بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها؛ لأن الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت في عقر دارها، كما يدل عليه النص الكريم: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾. ولأن دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة، حتى إنه بسبب استحالة أن ينتصر الروم عادة أو تقوم لهم قائمة، راهن بعض المشركين أبا بكر على تحقق هذه النبوة، ولكن الله تعالى أنجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة المحمدية.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى، وهي البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في هذا الوقت الذي ينتصر فيه الروم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾[2]! ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك وكان ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى واقعاً في الظرف الذي ظفر فيه الرومان، وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد، مع تقطع الأسباب في انتصار الروم كما علمت، ومع تقطع الأسباب أيضاً في انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه

---

(١) سورة الروم، الآيات: ٢ ـ ٦.
(٢) سورة الروم، الآيتان: ٤ ـ ٥.

البشارة؛ لأنهم كانوا أيامئذٍ في مكة في صدر الإسلام والمسلمون في قلة وذلة، يضطهدهم المشركون ولا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة، ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية، نزلت الآيات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقهما في موكب من التأكيدات البالغة التي تنأى بهما عن التكهنات والتخرصات، وإن كنت في شك فأعد على سمعك هذه الكلمات: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾[(١)].

ثم ألست ترى معي أن هذه العبارة الكريمة: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[(٢)] قد حاطت هاتين النبوءتين بسياج من الدقة والحكمة، لا يترك شبهة لمشتبه ولا فرصة لمعاند؛ لأن البضع كما علمت من ثلاث إلى تسع، والناس يختلفون في حساب الأشهر والسنين: فمنهم من يؤقت بالشمس ومنهم من يؤقت بالقمر، ثم إن منهم من يجبر الكسر ويكمله إذا عد وحسب، ومنهم من يلغيه، يضاف إلى ذلك أن زمن الانتصار قد يطول حبله، فتبتدىء بشائره في عام ولا تنتهي مواقعه الفاصلة إلا بعد عام أو أكثر، ونظر الحاسبين يختلف تبعاً لذلك في تعيين وقت الانتصار: فمنهم من يضيفه إلى وقت تلك البشائر ومنهم من يضيفه إلى يوم الفصل، ومنهم من يضيفه إلى ما بينهما، لذلك كله جاء التعبير بقوله جلت حكمته: ﴿سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[(٣)] من الدقة البيانية والاحتراس البارع بحيث لا يدع مجالاً لطاعن ولا حاسب، وظهر أمر الله وصدق وعده على كل اعتبار من الاعتبارات وفي كل اصطلاح من الاصطلاحات: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾[(٤)]؟!.

المثال الثاني: إنباء القرآن بأن الله عاصم رسوله وحافظه من الناس، لا يصلون إليه بقتل، ولا يتمكنون من اغتيال حياته الشريفة بحال، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[(٥)] ولقد تحققت نبوءة القرآن هذه، ولم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله عليه الصلاة والسلام، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم ومع

(١) سورة الروم، الآيتان: ٥ ـ ٦.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤.
(٣) سورة الروم، الآيتان: ٣ ـ ٤.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٢.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

أنهم كانوا يتربصون به الدوائر ويتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء عليه وعلى دعوته؟ وهو أضعف منهم استعداداً وأقل جنوداً، فمن الذي يملك هذا الوعد وتنفيذه إذن إلا الله الذي يَغلب ولا يُغلب، والذي لا يقف شيء في سبيل تنفيذ مراده: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾[1]؟ وإن لم تصدقني فسل التاريخ والمؤرخين، كم من الملوك والأمراء والفراعين ضرجت الأرض بدمائهم، وهم بين جنودهم وخدمهم وحشمهم!

فهل يمكن بعد هذا أن يكون القرآن الذي احتوى ذلك الضمان من كلام محمد وهو من قد علمت ضعفه وقوة أعدائه يومئذٍ؟ حتى لقد كان يتخذ الحراس قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت إذا ثقته واعتداده بها أعظم من ثقته واعتداده بمن كانوا يحرسونه، وسرعان ما صرف حراسة وسرحهم عند نزول الآية قائلاً: «أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله» كما رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري[2]، وكذلك روى مسلم[3] في صحيحه عن جابر قال: كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. فلما كنا بذات الرقاع نزل نبي الله تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبي ﷺ: أتخافني؟ قال: «لا»، قال: من يمنعك مني؟ قال: «الله يمنعني منك، ضع السيف» فوضعه، ومما يجدر التنبيه له أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف!

ومن شواهد حماية الله لرسوله وإنجازه له هذا الوعد، ما ورد عن علي رضي الله عنه قال: كنا إذا احمر البأس وحمي الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه.

ومن أبلغ الشواهد على ذلك أيضاً ما ثبت من أنه ﷺ في يوم حنين حين أعجبت المسلمين كثرتهم وأدبهم الله بالهزيمة حتى ولوا مدبرين، أنزل سبحانه سكينته على رسوله، حتى لقد جعل يركض بغلته إلى جهة العدو، والعباس بن المطلب آخذ بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع، فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ، فلما غشوه لم يفر

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٨.
(٢) رواه الترمذي في تفسير سورة (٥) حديث رقم: ٣٠٤٦.
(٣) رواه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، حديث: ٣١١.

obeikandl.com

ولم ينكص، بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه، فوالله ما نالوا منه نيلاً، بل أيده الله بجنده، وكف أيديهم عنه بيده، رواه الشيخان[١].

المثال الثالث: ما جاء في معرض التحدي بالقرآن، من قوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾[٢]. وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[٣] فإن ما تراه في هاتين الآيتين من القطع بانتفاء قدرة المخاطبين وجميع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قد تناول أطواء المستقبل ـ والمستقبل غيب ـ لا يملكه محمد ولا مخلوق غيره ومع ذلك فقد تحققت نبوءة القرآن ولا تزال متحققة، حيث انقرضت طبقة المخاطبين به دون أن يستطيعوا معارضة أقصر سورة منه، ومضت بعدهم أجيال وأجيال من عرب وأعجام، وكلهم قد باؤوا بالعجز ولم يستطيعوا المعارضة إلى اليوم، مع وجود أعداء للإسلام في هذه العصور المتأخرة، أكثر وأقدر وأحرص على هدم بناء هذا الدين من أولئك الأعداء الأولين.

لاحظ مع هذا ما يثيره مثل هذا التحدي الطويل العريض الجريء من الحمية الأدبية التي تبعث روح المنافسة على أشدها في نفوس من يتحداهم، ثم لاحظ أن المتأخرين من الناقدين لا يعييهم في العادة أن يستدركوا على السابقين، إما نقصاً يعالجونه بالكمال، أو كمالاً يعالجونه بما هو أكمل منه، وإذا فرضنا أن واحداً قد عجز عن هذا فمن البعيد أن تعجز عنه جماعة، وإذا عجزت جماعة فمن البعيد أن تعجز أمة، وإذا عجزت أمة فمن البعيد أن يعجز جيل، وإذا عجز جيل فمن البعيد أن تعجز أجيال فكيف يصدر إذن مثل هذا التحدي عن رجل يعرف ما يقول، فضلاً عن رجل عظيم، فضلاً عن رسول كريم، فضلاً عن محمد أفضل المرسلين؟! وهل يمكن أن يفسر هذا التحدي الجريء الطويل العريض إلا بأنه استمداد من وحي السماء، واستناد إلى من

(١) رواه البخاري في كتاب: الجهاد باب: (٥٢)، والمغازي، باب: (٥٤)؛ ومسلم في كتاب: الجهاد، حديث: ٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

يملك السمع والأبصار، وحديث عمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟!

المثال الرابع: ما جاء من التنبؤ بمستقبل الإسلام ونجاحه نجاحاً باهراً، فقد أخبر القرآن والمسلمون في مكة قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ـ بأن الإسلام سيظهر ويبقى، وأن كتابه سيكتب له الحفظ والخلود منفرداً بهذه الميزة عن سائر كتب الله، اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾(١). وفي سورة إبراهيم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(٢) وفي سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾(٣).

أجل في هذه السور الثلاث المكية، قطع القرآن هذه العهود المؤكدة بتلك اللغة الواثقة، والإسلام يومئذ في مكة مدفوع مضطهد، والمسلمون قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، وليس هناك من بواسم الآمال ما يلقي ضوءاً على نجاح هذا الدين الوليد، ولئن التمست هذه الآمال في نفس الداعي من طبيعة دعوته، فما كانت لتصل إلى هذا الحد من اليقين والتأكيد، ولئن وصلت إلى هذا الحد ما دام صاحبها حياً يتعهدها بنفسه ويغذيها بنشاطه، فليس لديه من العوامل ما يجعله يثق بهذا النجاح بعد موته، مع ما هو معروف بأن المستقبل مليء بشتيت المفاجآت، والليالي من الزمان حبالى مثقلات، والتاريخ لا يزال يقص علينا وعلى الناس نبأ من قتل من الأنبياء، وما ضاع أو حرف من كتب الله ووحي السماء وما حبط من دعوات الحق ونهض من دعوات الباطل... كل ذلك قد كان ومحمد ﷺ لم يكن في يوم من الأيام بالرجل الأخرق الذي يسير مع الأوهام، أو يطير مع الخيال، أو يطلب المجد عن طريق الأحلام المكذوبة والآمال المعسولة، بل كان معروفاً منذ نشأته، بتواضعه ورجاحة عقله واتزانه ودقته، حتى لقد كان يتثبت في كلامه ويتحرى إلى أن لقب واشتهر بأنه الصادق الأمين، وجاء القرآن نفسه يشهد بأنه ﷺ كان قبل نبوته لايطمع في نبوة ولا

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ ـ ٢٥.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩.

يأمل في وحي: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[١]. وكذلك لم يكن بعد نبوته بالذي يضمن بقاء هذا الوحي وحفظه: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧ ﴾[٢].

فلا مناص إذن من أن تكون تلك البشارات المؤكدة والعهود الموثقة، صادرة من أفق غير أفقه، آتية من ملك قاهر لا رادَّ لحكمه، معبرة عن مراد من يملك العالم ويحكمه في ماضيه وحاضره ومستقبله!

ومما يؤيد صدق هذه التنبؤات، أن الإسلام لقي من ضروب العنت مراراً وتكراراً؛ في أزمان متطاولة وعهود مختلفة، ما كان بعضه كافياً في محوه وزواله، ولكنه على رغم أنف هذه الأعاصير العاتية بقي ثابتاً يسامي الجبال، شامخاً يطاول السماء، وكذلك لقي كتابه العزيز ولا يزال يلقى من الهمز واللمز والطعن والسباب والمحاولات القاتلة، ما لا يتصوره إنسان في أي زمان، وما لم يلق كتاب قبله من الكيد والتضليل والبهتان، ومع ذلك كله فالقرآن هو القرآن، لا يزال جالساً على عرشه في سمائه، يمد العالم كله بحرارته وضيائه، ولم تنل منه هذه المحاولات إلا كما ينال نباح الكلاب من عاليات السحاب.

المثال الخامس: تنبؤ القرآن بأن المستقبل السعيد ينتظر المسلمين في وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد مواتية، ثم إذا تأويل هذا النبأ يأتي على نحو ما أخبر القرآن، في أقصر ما يكون من الزمان! أجل، إننا لنقرأ في سورة الصافات المكية: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝١٧٣ ﴾[٣] وفي سورة غافر المكية أيضاً: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ ﴾[٤] وكذلك نقرأ في سورة النور المدنية: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٦.
(٢) سورة الإسراء: الآيتان ٨٦ ـ ٨٧.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٧٣.
(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.

خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(١) على حين أن سجلات التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها ما يشيب الوليد من ألوان الاضطهاد والأذى الذي أصاب الرسول واتباعه في مكة والمدينة، على عهد نزول هذه الوعود المؤكدة الكريمة، حتى لقد كان أكبر أماني المسلمين بعد هجرتهم وتنفسهم الصعداء قليلاً، أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين في مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم(٢) عن أُبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت الآية، وكذلك روى ابن أبي حاتم عن البراء قال: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد، أي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلخ... هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم الله ما وعد، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي رغم هذه الحال المنافية في العادة لما وعد، فدالت الدولة لهم، واستخلفهم في أقطار الأرض، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومكن لهم دينهم الذين ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً، يا لها نبوءة تأبى عادة أن يتحدث بها إلا من يملك تحقيقها، ومن يخرق ـ إن شاء ـ عادات الكون ونواميسه من أجلها، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾(٣) ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾(٤).

المثال السادس: تنبؤ القرآن بأن الرسول وأصحابه وقد كانوا بالمدينة، سيدخلون مكة آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، إذ قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ﴾(٥) ثم وقع هذا التنبؤ كما أخبر، مع أن ظروفه لم تكن تسمح به في مجرى العادة فدل ذلك على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا مخلوق سواه، بل هو كلام القادر على أن يبلغ مراده ويخرق العادة.

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٢) المستدرك للحاكم: ٢/٤٠١.
(٣) سورة محمد، الآية: ٧.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

ولزيادة البيان تذكر أن الرسول ﷺ رأى في نومه كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فقص رؤياه على أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها من عامهم، ثم خرجوا محرمين يسوقون الهدي إلى مكة لا يقصدون حرباً وإنما يقصدون عمرة ونسكاً ولكنهم ما كادوا يبلغون الحديبية حتى صدتهم قريش وأبت عليهم ما أرادوا، وكادت تكون حرب لولا أن الرسول رضي بصلح بينه وبينهم وإن كان قاسياً، إيثاراً منه للمسالمة وحباً للسلام العام، ثم قفل راجعاً على أن يؤدي نسكه في العام القابل نزولاً على مواد هذا الصلح القاسي، وعز ذلك على أصحابه، واتخذ المنافقون منه حطباً لنفاقهم ومادة لدسهم ولمزهم، فقال عبد اللّه بن أبي رأسهم: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام ولكن على رغم هذا وعلى رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الأرحام، نزلت الآية الكريمة تحمل هذا الوعد بل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة، وهي دخول مكة وأداء النسك والأمن على أنفسهم من قريش حتى يتحللوا ويقفلوا راجعين إلى المدينة، وقد أنجز الله وعده فتم الأمر على أكمله في العام الذي بعد عام الحديبية، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

المثال السابع: تنبؤ الكفار بهزيمة جموع الأعداء في وقت لا مجال فيه لفكرة الحرب، فضلاً عن التقاء الجمعين وانتصار المسلمين وانهزام المشركين وذلك قوله سبحانه في سورة القمر المكية: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[2] وأنت خبير بأن الجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية للهجرة، فأين ما يتنبأ به القرآن إذن؟ إنه لا بد أن يكون كلاماً تنزل ممن يعلم الغيب في السموات والأرض، أما محمد الرجل الأمي فأنى له ذلك إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم؟. روى ابن أبي حاتم وابن مردويه أن عمراً رضي الله عنه جعل يقول حين نزلت هذه الآية: أي جمع هذا؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقولها.

المثال الثامن: تنبؤ القرآن في مكة بهذا المستقبل الأسود الذي ينتظر كفار قريش، ثم وقوع ذلك كما تنبأ، اقرأ قوله سبحانه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.
(٢) سورة القمر، الآية: ٤٥.

مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾[1] وسبب نزول هذه الآيات أن أهل مكة لما تمردوا على رسول الله ﷺ واستعصوا، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، أي بالجوع والقحط الشديدين، عسى أن يتوبوا ويؤمنوا بالله ورسوله، فأجابه الله بهذه الآيات، وفيها عند التأمل خمسة تنبؤات:

أولها: الإخبار بما يغشاهم من القحط وشدة الجوع، حتى ينظر الرجل إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان.

ثانيها: الإخبار بأنهم سيضرعون إلى الله حين تحل بهم هذه الأزمة: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[2].

ثالثها: الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً.

رابعها: الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتوهم.

خامسها: الإخبار بأن الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى وهو يوم بدر.

ولقد حقق الله ذلك كله ما انخرم منه ولا نبوءة واحدة، فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجهده. ثم قالوا متضرعين ذلك الذي حكاه الله عنهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[3]. ثم كشف الله عنهم هذا العذاب قليلاً، ثم عادوا إلى كفرهم وعتوهم، ثم انتقم الله منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون وأديل للمسلمين منهم!

أرأيت ذلك كله؟ وهل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم.

المثال التاسع: تنبؤ القرآن بهذا المستقبل المظلم الأسود، المضروب على اليهود

---

(١) سورة الدخان، الآيات: ١٠ ـ ١٦.
(٢) سورة الدخان، الآيتان: ١١ ـ ١٢.
(٣) سورة الدخان، الآيتان: ١١ ـ ١٢.

o p e i k a n o t . c o m

بوجه مؤكد مؤبد، ثم تحقق هذا النبأ كاملاً عاماً يتناول القرون والأجيال من عهد نزول القرآن لم ينخرم مرة من المرات في يوم واحد من الأيام، اقرأ ما نزل في شأنهم من قوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾(١)، ثم انظر كم تنبأوا في هذا النظم الكريم، وضعه الله كأنه الأغلال في عنق هذا الشعب الماكر اللئيم؟ ألست ترى فيه أنهم لا يستطيعون أن ينالوا من المسلمين بالحرب والقتل والأسر؟ إنما ضررهم أذى بالغدر وبسوء الاستغلال والمكر، وعلى فرض أنهم يقاتلون المسلمين، فسيلوذون حينئذ بالفرار، ويولون الأدبار، ولا سبيل لهم في المستقبل إلى الانتصار ثم إن الذلة قد ضربت عليهم كما يضرب الحجر على السفهاء لا يستطيعون الفكاك إلا إن دخلوا في عهد من الله أو عهد من الناس، ثم إن المسكنة وهي خوف الفقر قد ضربت عليهم كذلك، فهم أشد الشعوب خوفاً من الفقر، ولذلك كانوا أشدها طمعاً وشرهاً في جمع الدنيا، لا يعرفون القناعة وإن غرقوا في المال إلى أم رؤوسهم، ولا يتورعون عن الجري وراء الدنايا بأحط الوسائل، وإن كانوا يملكون الآن ما يقرب من نصف ثروة العالم!.

ثم اقرأ في شأن هذه الطائفة قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾(٢). وخبرني ألست تقرأ في هذا النص الكريم، صكاً مسجلاً بعبودية هؤلاء وذلتهم إلى الأبد؟ ثم ألست ترى أن تداول القرون والأحقاب من لدن نزول القرآن إلى اليوم لم يزد هذا التنبؤ إلا تصديقاً وتحقيقاً، ما حرمه مرة وإنما أشبعه إعجازاً وتأييداً؟. إن كنت في شك فسل التاريخ قديمه وحديثه، أو فاستمع إلى صوت المآسي الماثلة القريبة، ثم قل: صدق الله، ما القرآن إلا كلامه، وما محمد إلا عبده ورسوله!.

وإليك مثالاً آخر في شأن هؤلاء أبدع في الإعجاز وأروع:

المثال العاشر: تحدي القرآن لأعداء الله اليهود في شيء يظهر أنه سهل بسيط، وأنه كان في متناول قدرتهم وفي دائرة استطاعتهم، ومع ذلك انصرفوا عنه، وعجزوا،

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١١١ ـ ١١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

فدل هذا التحدي مع الانصراف والعجز، على أن القرآن كلام من يستطيع تصريف القلوب وتحريك الألسنة، وهو الله وحده، أما محمد صلوات الله وسلامه عليه فمحال أن يقامر بنفسه وبدعوته ويتحدى بهذا الأمر الظاهرة سهولته، وهو بشر لا يعلم الغيب ولا يستطيع أن يقلب القلوب ولا أن يعقد الألسنة.

وبيان ذلك أن اليهود زعموا أنهم هم الشعب المختار من بين شعوب الخلق، وادّعوا أن الدار الآخرة وقف عليهم وخالصة لهم من دون الناس، فخاطب الله رسوله في سورة البقرة يرد عليهم ويتحداهم بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾(١) ثم قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾(٢)، فأنت ترى هذا النظم الكريم يبطل مزاعم اليهود بطلب يبدو لكل ناظر أنه هين، وهو أن يتمنوا الموت لو كانوا صادقين في ادعائهم أن نعيم الآخرة وقف عليهم ولقد كان بمقدور اليهود في العادة أن يقولوا ولو بألسنتهم: نحن نتمنى الموت، كي تنهض حجتهم على محمد ويسكتوه، لكنهم صرفوا فلم يقولوا ولم يستطع أحد أن يقول: إني أتمنى الموت، وعلى ذلك قامت الحجة عليهم، وبان كذبهم في كبريائهم وغرورهم، وبلغ من أمر القرآن معهم أنه نفى عنهم هذا التمني نفياً يشمل آباد المستقبل فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾.

وها قد مضى على نزول القرآن قريب من أربعة عشر قرناً، وما تمنى أحد منهم الموت لو كانوا صادقين، بل أعلن القرآن في السورة نفسها مبلغ حرصهم على الحياة وأملهم فيها فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾(٣). فكان ذلك علماً جديداً من أعلام النبوة، لأنه تنويه بغيب حاضر، لم يكن يعلمه محمد ولا قومه.

خبرني ـ بربك ـ هل يتصور عاقل أن محمداً وهو في موقف الخصومة الشديدة من اليهود، تطوع له نفسه أن يتحداهم هذا التحدي من عنده في لغة الواثق الذي لا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

يتردد، والآمن الذي لا يخاف المستقبل؟ وهل كان يأمن أن يرد عليه واحد منهم فيقول: إني أتمنى الموت؟ وهنا تكون القاضية، فتنقطع ـ لا قدر الله ـ حجة الرسول، ويظهر عجزه، وتفشل دعوته، أمام قوم هم من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ومن أحرصهم على إفحام الرسول وتعجيزه.

فصدور هذا التحدي من رجل عظيم كمحمد، ثم استخذاء هؤلاء وانصرافهم عن الرد عليه وعن إسكاته وهو في مقدور أقل رجل منهم، ثم تسجيل هذا الاستخذاء عليهم في الحال بقوله: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ وفي الاستقبال بقوله: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ كل أولئك أدلة ساطعة على أن القرآن كلام علام الغيوب، قاهر الألسنة ومقلب القلوب، وهي أيضاً براهين قاطعة على أن محمداً لا يمكن أن يكون مصدر هذا الكتاب ولا منبع هذا الفيض، بل قصاراه أنه مهبط هذا التنزيل، وأنه يتلقاه من لدن حكيم عليم.

المثال الحادي عشر: وهو من عجائب هذا الباب، أن القرآن عرض لتعيين بعض أحداث جزئية، تقع في المستقبل لشخص معين، ثم تحقق الأمر كما أخبر، هذا هو الوليد ابن المغيرة المخزومي يقول الله فيه: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾[1] أي سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها وقد كان، ففي غزوة بدر الكبرى خطم ذلك الرجل بالسيف أي ضرب به أنفه، وبقي أثر هذه الضربة سمة فيه وعلامة له! ولعلك لم تنس أن الوليد هو الذي نزل فيه: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[2] وما بعدها من الآيات التي ذكرناها قبلاً، وهو أيضاً الذي نزلت فيه هنا هذه الآيات من سورة القلم: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾[3]. نعوذ به تعالى من الكفر والعناد وسوء الأخلاق، ونسأله الإيمان الكامل والعمل الصالح والخلق الفاضل آمين.

---

(١) سورة القلم، الآية: ١٦.
(٢) سورة المدثر، الآية: ١١.
(٣) سورة القلم، الآيات: ١٠ ـ ١٦.

obeikandi.com

على هامش الوجه السابع

في هذا الوجه من الإعجاز على ما شرحنا ومثلنا، معجزات كثيرة لا معجزة واحدة، لأن كل نبأ من أنباء الغيب معجزة، فانظر ما عدة تلك الأنباء، يتبين لك عدد تلك المعجزات.

وإنه ليروعك هذا الإعجاز إذا لاحظت أن هذه الكثرة الغامرة لم تتخلف منها قط نبوءة واحدة، بل وقعت كما أنبأ على الحال الذي أنبأ، ولو تخلفت واحدة لقامت الدنيا وقعدت، وطبل أعداؤه ورقصوا فرحاً بالعثور على سقطة لهذا الذي جاءهم من فوقهم، وتحداهم بما ليس في طوقهم، وسفه معبوداتهم ومعبودات آبائهم، ولو كان ذلك لنقل وتواتر ما دامت هذه الدواعي متوافرة على نقله وتواتره كما ترى.

ويزيد في أمر هذا الإعجاز أن المتحدث بهذه الأنباء الغيبة أمي نشأ في الأميين، وأن من هذه الأنباء ما كان تحدياً وإجابة لسؤال العلماء من أهل الكتاب، كما سألوه ﷺ عن أصحاب الكهف وذي القرنين وعن الروح ونحوها، وأجابهم عما سألوا وهو يعلمون أنه غيب بالنسبة إليه، ليست لديه وسيلة عادية للعلم به، ولم يؤثر عنهم أنهم كذبوه في شيء مما أخبر تكذيباً يستندون فيه إلى دليل، بل هو الذي كان يكذبهم فيما حرفوه، ويرشدهم إلى حقيقة ما بدلوه، ويتحداهم بما في أيديهم إذا جادلوه، وإليك شاهداً على ذلك:

قالت اليهود مرة للنبي ﷺ: إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها. فقال عليه السلام: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحله». فقالت اليهود إنها لم تزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام، فنزل تكذيباً لهم، وتحدياً بالتوراة التي عندهم: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾[١].

يضاف إلى ما ذكرنا أن النبي ﷺ كان يخفى عليه وجه الصواب في بعض ما يعنيه

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٩٣ ـ ٩٥.

من الشؤون ويهمه من الأمور فكان يتوقف تارة كما توقف في حديث الإفك مدة حتى نزل الوحي ببراءة عائشة زوجه وبنت صديقه، وكان يجتهد ويخطىء تارة أخرى، كما حدث في أسرى بدر على ما سيأتي، فلو كانت هذه الأنباء الغيبية نابعة من نفسه ولم تكن من ربه، لكان الأحرى به أن يعرف وجه الصواب في أمثال تلك الشؤون والمهام، مع أن أسباب العلم فيها أقرب إلى اليسر والسهولة من تلك الغيبيات التي تقطت أسبابها العادية جملة ومع أن الرسول قد آلمه ما أصابه من جراء عدم علمه بأمثال تلك الشؤون والمهام، وإلى ذلك يشير القرآن في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾[1].

معجزات يكشف عنها العلم الحديث

يتصل بما ذكرنا من أنباء الغيب، نوع طريف لم يكشف عنه إلا العلم في العصر الحديث، وكان قبل ذلك مخبوءاً في ضمير الزمن، خفياً على المعاصرين لنزول القرآن، حتى صاغ أعداء الله من هذا الخفاء شبهة، ولفقوا منه تهمة، ما علموا أن جهلهم لا يصح أن يكون حجة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[2]. وإليك أمثلة ثلاثة من هذا النوع:

١ ـ معجزة يكشف عنها التاريخ الحديث

قال العلامة صاحب مجلة الفتح الغراء: في سورة التوبة نقرأ هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3]؟ فصدر هذه الآية وهو جملة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ يتضمن من وقائع التاريخ وحقائق العلم، أمراً لم يكن أحد يعرفه على وجه الأرض في عصر نزول القرآن.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

ذلك أن اسم عزير، لم يكن معروفاً عند بني إسرائيل إلا بعد دخولهم مصر واختلاطهم بأهلها واتصالهم بعقائدها ووثنيتها، واسم عزير هو (أوزيرس) كما ينطق به الإفرنج أو (عوزر) كما ينطق به قدماء المصيريين، وقدماء المصريين منذ تركوا عقيدة التوحيد وانتحلوا عبادة الشمس، كانوا يعتقدون في عوزر أو أوزيرس أنه ابن الله، وكذلك بنو إسرائيل في دور من أدوار حلولهم في مصر القديمة، استحسنوا هذه العقيدة عقيدة أن أوزيرس ابن الله، وصار اسم أوزيرس أو عوزر (عزير) من الأسماء المقدسة التي طرأت عليهم من ديانة قدماء المصريين، وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذي قدسوه كفراً وضلالاً، فعاب الله عليهم ذلك في القرآن الحكيم، ودلهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذي نسيه البشر جميعاً.

إن اليهود لا يستطيعون أن يدعوا في وقت من الأوقات أن اسم عزير كان معروفاً عندهم قبل اختلاطهم بقدماء المصريين وهذا الاسم في لغتهم من مادة (عوزر) وهي تدل على الألوهية، ومعناه الإله المعين، وكانت بالمعنى نفسه عند قدماء المصريين في اسم عوزر أو أوزيرس الذي كان عندهم في الدهر الأول بمعنى الإله الواحد، ثم صاروا يعتقدون أنه ابن الله عقب عبادتهم للشمس واليهود أخذوا منهم هذا الاسم في الطور الثاني عندما كانوا يعتقدون أن أوزيرس ابن الله.

فهذا سر من أسرار القرآن، لم يكتشف إلا بعد ظهور حقيقة ما كان عليه قدماء المصريين في العصر الحديث، وما كان شيء من ذلك معروفاً في الدنيا عند نزول القرآن! حتى إن أعداء الإسلام كانوا يصوغون من جهلهم بهذه الحقيقة التاريخية شبهة يلطخون بها وجه الإسلام ويطعنون بها في القرآن، فقال اليهود منهم: آن القرآن يقولنا ما لم نقل في كتبنا ولا في عقائدنا، وأتى دعاة النصرانية منهم بما شاء لهم أدبهم من السب والطعن والزراية بالقرآن ودين الإسلام ونبي الإسلام!. اهـ بتصرف طفيف.

٢ ـ معجزة يكشف عنها الطب الحديث

كتب العلامة المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل (باشا) في مجلة الأزهر الغراء يقول في مقال له تحت عنوان: (الطب وصيام شهر رمضان): من الناس من يتوهم أن في صيام رمضان ـ وهو من أركان الإسلام ـ مضرة تلحق بالصائم، لما يصيب

الجهاز الهضمي خاصة وغيره عامة؛ ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب، وهذا خطأ؛ لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام في شيء، ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار والسحور، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله في وقت الإفطار، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات لأنه لا ضرر من الجوع في حد ذاته.

وبما أن الصيام يستعمل طبياً في حالات كثيرة، ووقاية في حالات أكثر، وأن كثيراً من الأوامر الدينية لم تظهر حكمتها وستظهر مع تقدم العلوم، رأيت من الواجب على أن أكتب عما ظهر طبياً للآن من فوائد هذه الأوامر، وإيضاح آيات قرآنية لأبين معناها الذي لا يظهر إلا لمن بحث عنها في نور الطب الحديث، وسأبدأ بالصيام.

الصيام:

للصيام فوائد في ثلاث جهات: **أولاها**: وأهمها الجهة الروحية وهذه أتركها لعلماء الدين والمتصوفة منهم. **ثانيها**: الجهة الأخلاقية وهذه أتركها لعلماء الأخلاق، ومن السهل البرهنة على أن الصيام يعود الإنسان النظام والقناعة، وطاعة الرؤساء، والصبر وكبح شهوات النفس، وحب الخير والصدقة، وغير ذلك من الفضائل. **وثالثها**: وأقلها أهمية الجهة المادية أو الصحية، وهي محل بحثنا.

لقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة، وهو العلاج الوحيد في أحوال أخرى وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض شتى.

فللعلاج يستعمل في:

١ ـ اضطرابات الأمعاء المزمنة المصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية، وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر، وهذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الأمعاء.

٢ ـ زيادة الوزن الناشيء من كثرة الغذاء وقلة الحركة فالصيام أنجع من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار في الطعام، والاكتفاء بالماء في السحور.

٣ ـ زيادة الضغط الذاتي، وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات

النفسية، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله.

٤ ـ البول السكري، وهو متشر انتشار الضغط. ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة الوزن، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ويهبط السكر في العادة بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكري الخفيف، وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي بكثير، ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج لهذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد على الوزن الطبيعي ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام.

٥ ـ التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم.

٦ ـ أمراض القلب المصحوبة بتورم.

٧ ـ التهاب المفاصل المزمنة خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين وقد شوهدت حالات تمشي في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تمشي مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث.

ورب سائل يقول: ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب في كل مرض على حدته، والصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء... وهذا صحيح، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض، وخصوصاً الأمراض التي مر ذكرها تحت رقم ١، ٢، ٣، ٧.

وهذه الأمراض كلها تبتدىء في الإنسان تدريجاً، بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذي يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هي في الصيام: بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح، وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول، السكري، وزيادة الضغط الذاتي للدم، والتهاب المفاصل المزمن، وغير ذلك.

ومع قلة الوزن الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها، وهذا هو السر في أن شركات التأمين لا تقبل تأميناً على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلما زاد الوزن، والصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض.

وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف فقد انتشرت في أوروبة أكثر من الأول وفي مصر يكاد يكون البول السكري وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وهو قليل جداً في الفقراء.

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر في الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان السابقة، لأن الإسلام ـ وهو آخر الشرائع السماوية ـ جاء في زمن نحتاج فيه إلى الوقاية من أمراض تزداد كلما ازداد الترف. اهـ رحمة الله عليه.

٣ ـ معجزة يكشف عنها علم الاجتماع

كتب العلامة مدير مجلة الأزهر الغراء تحت عنوان: (معجزات القرآن العلمية ـ القرآن يضع أصول علم الاجتماع قبل العلم بأكثر من ألف سنة) مقالاً ضافياً نقتطف منه ما يلي:

«لما جاء الإسلام وشرع أهله في إحياء موات العلم ونقل كتبه القيمة إلى لغتهم، نظروا في كل شيء، مستهدين بالأصول الأولية للقرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[1] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[2] فأدركوا على وجه عام أن لكل شيء في هذا الوجود نظاماً يجري عليه كما فعل بعض المؤرخين، وخاصة ابن خلدون، ولكن المعارف التي كانت قد جمعت عن الأمم، لم تكن تكفي لتكوين علم خاص بها، وتلت هذا الدور نهضة أوروبا. فادخر الله هذا السبق للفيلسوف الفرنسي الكبير (أوجست كونت ١٧٩٨ ـ ١٨٥٣) واضع أصول الفلسفة الوضعية فإنه أول من جعل للاجتماع علماً ووضعه في رأس جميع العلوم البشرية لشرف موضوعه من ناحية، ولأنه لا يتسنى إلا لمن يأخذ من كل علم بطرف، لتشعب بحوثه، واستنادها على جملة المعارف البشرية.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢١.

فعلم الاجتماع البشري أحدث العلوم وضعاً، ولكنه أشرفها موضوعاً، إذ يعرفنا على أي الأصول تقوم الجماعات، وبأيها تحفظ وجودها وترتقي، وما هي عوامل التأليف التي تقوي وجودها؟ وعوامل التحليل التي تفصم عرا ألفتها؟. وهذه كلها معارف عالية ضرورية للمجتمع ضرورة علمي قوانين الصحة والطب لآحاده.

ثم ذكر من قواعد علم الاجتماع: أن الإنسان لا يستطيع أن يؤثر في المجتمع لمجرد رأي يبدو له في إصلاحه، ولكن ذلك لا يكون إلا إذا فهم الكافة سداد هذا الرأي وعملوا به، عند ذاك يوجد في المجتمع ميل جديد للتحول عن الجهة التي يراد تحويله منها، إلى الوجهة التي يريده على أن يكون عليها، وهذا كله مصداق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] فمعنى الآية أن الأمة التي تريد أن يحول الله عنها حالاً لا ترضاه لمجتمعها، يجب عليها أن تغير من نفسيتها أولاً فإن فعلت حوّل الله عنها ما تكره، ووجه إليها من نعمه ما تحب، وهذا وحده معجزة علمية للقرآن كان يجب أن يعقد لها فصل خاص، وأن يشاد بذكرها أعظم إشادة! فكشف هذا السر يجعلنا ندرك سر تنبيه القرآن على وجوب الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر ـ وبعد أن ساق أدلة عن الكتاب والسنة على ذلك قال:

القرآن أثبت أن للاجتماع نواميس ثابتة قبل أن يتخيلها أعلم علماء الأرض تخيلاً وقد رأيت أن تعيين تلك النواميس والتحــــري مما خفي منها هو الشغل الشاغل اليوم لفلاسفة الاجتماع. فقال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[3]. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[4].

ولم يكتف الكتاب بهذا وحده، ولكنه قرر أيضاً أن الجماعات كالآحاد، لها آجال لا تستطيع أن تتعداها، وهو ما هدى إليه علم الاجتماع بعد أن وجد أن وجوه

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٣.

الشبه بين الفرد والمجتمع واحدة، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾(١). وقد تكرر مثلها في سورة كثيرة من القرآن الكريم.

فالذي يتأمل في سبق القرآن الكريم العالم كله أكثر من عشرة قرون في وضع أصول العلم الاجتماعي، ويكون من غير أهل هذا الدين، يدهش كل الدهش، ولا يكاد يصدق عينيه، وسندأب نحن من جهتنا على تجلية الأصول العلمية مستخرجين إياها من الكتاب الكريم، ليتحقق العالم أنه على ما يقوله موحيه سبحانه وتعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(٢).

وبذلك يتضح سر نهضة المسلمين التي حصلت لهم زعامة العلم والحكمة في العالم في سنين معدودة، فإنهم لو كانوا بدؤوا حياتهم العلمية على النحو الذي تبدؤها به كل أمة، ما استطاعوا أن يبزوا الأمم التي تقدمتهم في هذا السبيل بقرون كثيرة، ولكنهم لبدئهم إياها مستنيرين بهذه الأصول القرآنية العالية، بلغوا منها أوجاً في مدى قصير لم تبلغه أمة في آماد طويلة، وعلى المسلمين اليوم أن يدركوا هذا الأمر الجلل، وأن يجعلوا كتابهم نبراساً لهم في اقتباسهم العلم عن الأمم الغربية، ليبلغوا منه ما بلغه أسلافهم في عهدهم الأول، ويزيدوا عليه ما هُدِيَ إليه البشر في العصور الأخيرة. اهـ.

الوجه الثامن: آيات العتاب

ومعنى هذا أن القرآن سجل في كثير من آياته بعض أخطاء في الرأي على الرسول ﷺ، ووجه إليه بسببها عتاباً نشعر بلطفه تارة وبعنفه أخرى، ولا ريب أن العقل المنصف يحكم جازماً بأن هذا القرآن كلام الله وحده، ولو كان كلام محمد ما سجل على نفسه هذه الأخطاء وهذا العتاب، يتلوهما الناس بل ويتقربون إلى الله بتلاوتهما حتى يوم المآب.

الخطأ في الاجتهاد ليس معصية:

ونبهك في هذه المناسبة إلى أن هذا الخطأ ليس معصية، حتى يقدح ذلك في

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

عصمة الرسول ﷺ، إنما هو خطأ فحسب، بل هو من نوع الخطأ الذي يستحق صاحبه أجراً، لأنه صادر عن اجتهاد منه، والاجتهاد الصالح ـ وهو بذل الجهد في الاطلاع والبحث والموازنة والاستنتاج ـ مجهود شاق يبذله صاحبه لغرض شريف، فليس من الإنصاف حرمانه من المكافأة متى كان أهلاً للاجتهاد وإن أخطأ، لأن الإنسان ليس في وسعه أن يكون معصوماً من الخطأ، بل المجتهد يخطىء بعد أن يبذل وسعه في طلب الصواب وهو يتمنى ألا يخطىء بل وهو يخشى أشد الخشية أن يخطىء، والله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] وعلى هذا قررت شريعتنا السمحة أن المجتهد له أجر إن أخطأ وأجران إذا أصاب، روى الجماعة كلهم حديث «إذا حكم الحاكم في شيء فاجتهد ثم أصاب فله أجران. وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد»[2] بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة، ويقول للواحد منهم: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا» رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه[3].

ولا ريب أن الرسول ﷺ كان في موضع الإمامة الكبرى للخلق فكان من حكمة الله أن يجتهد ليقلده الخلق في الاجتهاد، وأن يخطىء في بعض الأمور لئلا يصرفهم خوف الخطأ في الاجتهاد عن الاجتهاد، ما دام أفضل الخلق على الإطلاق قد أخطأ ومع خطئه لم يمتنع عن الاجتهاد، بل عاش طوال حياته يجتهد في كل ما لم ينزل عليه فيه وحي، حتى يتقرر في الناس مبدأ الانتفاع بمواهب العقول وثمار القرائح، ويتحرر الفكر البشري من رق الجمود والركود.. ثم كان من حكمة الله أيضاً أن يقف رسوله على وجه الصواب فيما أعوزه فيه الصواب ليعلم الناس أنه ليس كأحدهم، ولا أن اجتهاده كاجتهادهم، بل اجتهاده حجة دونهم، لأنه ﷺ مؤيد من لدن ربه، يتولاه مولاه دائماً حتى لا يقره على خطأ في الأمور الاجتهادية، وهنا يزداد الذين آمنوا إيماناً به،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) رواه البخاري في الاعتصام: ٢١. ومسلم في الأقضية: ١٥، وأبو داود في الأقضية: ٢، والترمذي في الأحكام: ٢، والنسائي في القضاة: ٣، وابن ماجه في الأحكام: ٣، والإمام أحمد: ٢/ ١٨٧.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد، حديث: ٨٢، والترمذي في كتاب السير، باب: ٤٧، وابن ماجه في كتاب: الجهاد، باب: ٣٨، وأحمد: ٥/ ٢٥٨.

وثقة بكل ما صدر عنه، ثم يقتدون به في وجوب الخضوع للحق إذا ظهر، كما كان الرسول يخضع له ويعلنه ويعلن خطأه فيما أخطأ فيه لا تأخذه العزة بالإثم، ولا تلويه العظمة عن حق، بل هنا سر العظمة وسر النهضة وسر تربية الأمة بالقدوة، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1].

إنما العار الجارح لكرامة البشر، أن يجمد الإنسان فلا يجتهد وهو أهل للاجتهاد، أو يجمد المجتهد على رأيه وإن كان عظيماً بعد أن يتعلن له خطؤه، مع أن الرجوع إلى الحق فضيلة، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، والكمال المطلق لله وحده، وفي الحديث. «كل بني آدم خطاء؛ وخير الخطائين التوابون»[2].

يضاف إلى ما ذكرنا من الحكم والأسرار في أخطاء الرسول الاجتهادية، أمر آخر له قيمته وخطره، وهو إقامة أدلة مادية ناطقة على بشرية الرسول وعبوديته، وأنه ـ وهو أفضل خلق الله ـ لم يخرج من أن يكون عبداً من عبيد اللَّه، يصيبه من أعراض العبودية ما يصيب العباد، ومن ذلك خطؤه في الاجتهاد، وبذلك لا يضل المسلمون في إطرائه، ولا يغلون في إجلاله، كما ضل النصارى في ابن مريم ولقد نبه الرسول ﷺ إلى ذلك فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد اللَّه ورسوله» رواه البخاري[3] وقال: «إنما أنا بشرٌ مثلكم، وإن الظن يخطىء ويصيب ولكن ما قلت لكم؛ قال الله فلن أكذب على الله» رواه أحمد وابن ماجه[4]. وقال ﷺ «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن[5] بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها» رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن[6].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٢) أخرجه الترمذي في القيامة: ٤٩، وابن ماجه في الزهد: ٣٠، والدارمي في الرقائق: ١٨، وأحمد: ١٩٨/٣.
(٣) رواه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ٤٨.
(٤) مسند أحمد: ١/ ١٦٣، وسنن ابن ماجه، رهون: ١٥.
(٥) ألحن: أبلغ.
(٦) رواه البخاري في الشهادات: ٢٧، والأحكام: ٢٠، ومسلم في الأقضية: ٤، وأبو داود في الأقضية:=

وخلاصة القول أن في هذا المقام أموراً ثلاثة:

أولها: أن خطأ الرسول ﷺ لم يكن من جنس الأخطاء المعروفة التي يتردى فيها كثير من ذوي النفوس الوضيعة، كمخالفة أمر من الأوامر الإلٰهية الصريحة، أو ارتكاب فعل من الأفعال القبيحة، إنما كان خطؤه عليه الصلاة والسلام في أمور ليس لديه فيها نص صريح، فأعمل نظره وأجال فكره وبذل وسعه ولكن على رغم ذلك كله أخطأ.

ثانيها: أن الله تعالى لم يقر رسوله على خطأ أبداً، لأنه لو أقره عليه لكان إقراراً ضمنياً بمساواة الخطأ للصواب والحق للباطل، ما دامت الأمة مأمورة من الله باتباع الرسول فيما يقول ويفعل، ولكان في ذلك تلبيس على الناس وتضليل لهم عن الحق الذي فرض الله عليهم اتباعه، ولكان ذلك مدعاة إلى التشكك فيما يصدر عن الرسول، ضرورة أنه على هذا الفرض قد يجتهد ويخطىء ولا يرشده الله إلى وجه الصواب فيما أخطأ، وهذه اللوازم كلها باطلة لا محالة، فبطل ملزومها وثبت أن الحكيم العليم لا يمكن أن يقر القدوة العظمى على خطأ أبداً، بل لا بد أن يبين له وجه الصواب، وقد يكون مع هذا البيان لون من ألوان العتاب لطيفاً أو عنيفاً، توجيهاً له وتكميلاً، لا عقوبة وتنكيلاً.

ثالثها: أن الرسول كان يرجع إلى الصواب الذي أرشده إليه مولاه دون أن يبدي غضاضة، ودون أن يكتم شيئاً مما أوحي إليه من تسجيل الأخطاء عليه، وتوجيه العتاب إليه، وفي ذلك ـ لا ريب ـ أنصع دليل على عصمته وأمانته، وعلى صدقه في كل ما يبلغ عن ربه، وعلى أن القرآن ليس من تأليفه ووضعه، ولكنه تنزيل العزيز الرحيم.

آيات العتاب نوعان

أما بعد فإن العتاب الموجه للرسول في القرآن على نوعين نوع لطيف لين ونوع عنيف خشن، ولنمثل لهما بأمثلة ثلاثة:

المثال الأول: قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ

= ٧، والترمذي في الأحكام: ١١، والنسائي في آداب القضاة: ١٢، وابن ماجه في الأحكام: ٥؛ ومالك في الأقضية: ١، وأحمد: ٢/ ٣٣٢.

يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[(١)] وذلك أنه عليه السلام كان قد أذن لبعض المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك حين جاؤوا يستأذنون ويعتذرون، فقبل منهم تلك الأعذار، أخذاً بظواهرهم، ودفعاً لأن يقال إنه لا يقبل العذر من أصحاب الأعذار، ولكن الله تعالى عاتبه كما ترى، وأمره بكمال التثبت والتحري، وألا ينخدع بتلك الظواهر، فإن من ورائها أسفل المقاصد والله أعلمُ بما يبيتون، ولعله لم يخفَ عليك لطف هذا العتاب بتصدير العفو فيه خطاباً للرسول من رب الأرباب!.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ ﴾[(٢)] وذلك أنه وقع في أسر المسلمين يوم بدر سبعون من أشراف قريش، فاستشار الرسول أصحابه فيهم، فمنهم من اشتد وأبى عليهم إلا السيف، ومنهم من رق لحالهم وأشار بقبول الفداء منهم، وكان ﷺ مطبوعاً على الرحمة، ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فرجح بمقتضى طبعه الكريم ورحمته الواسعة رأي من أشار بقبول الفداء عسى أن يسلموا أو يخرج الله من أصلابهم من يعبده ويمجده، ولينتفع المسلمون بمال الفدية في شؤونهم الخاصة والعامة، ولكن ما لبث حتى نزلت الآيات الكريمة المذكورة، وفيها تسجيل لخطأ ذلك الاجتهاد المحمدي، فلو كان القرآن كلامه ﷺ ما سجل على نفسه ذلك الخطأ!

أمر آخر: في هذه الآيات ظاهرة عجيبة، هي الجمع بين متقابلات لا تجتمع في نفس بشر على هذا الوجه، فصدرها استنكار للفعل ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾. وعقب هذا الاستنكار عتاب قاس مر وتخويف من العذاب ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ ﴾[(٣)] وفي أثر هذا الاستنكار والعتاب والتخويف إذن بالأكل، ووصف له بالطيب والحل، وبشارة بالمغفرة والرحمة لمن أكل ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٣.
(٢) سورة الأنفال، الآيات: ٦٧ ـ ٦٩.
(٣) سورة الأنفال، الآيتان: ٦٧ ـ ٦٨.

غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾(١) ومثلك يعلم أن نظم هذه المتقابلات في سلك واحد بهذه الصورة لآمر واحد ومأمور واحد، لا يمكن أن يصدر من نفس بشرية هكذا من غير فاصل بين الإنكار والإذن، ولا بين المدح والذم، ولا بين الوعيد والوعد لأن من طبيعة البشر أن يشغلهم شأن عن شأن، ولا يجتمع لهم في أمر واحد ووقت واحد خاطران متقابلان، ولا حالان متنافيتان، كالغضب والرضا والاستهجان والاستحسان بل إذا تواردا على النفس فإنما يردان متعاقبين في زمنين. وإذا تعاقبا فاللاحق منهما يمحو السابق، وإذا محاه لم يبق معنى لإثباته وتسجيله، بل من الطبيعي تركه والإضراب عنه، خصوصاً إذا كان هذا الخاطر الأول إعلاناً لتخطئة المتكلم ونقده ولومه، كقبول الفداء في هذا المقام وأكله.

فلا جرم أن هذه الظاهرة تأبى هي الأخرى إلا أن تكون دليل إعجاز، وبرهان صدق على أن هنا نفسيتين مختلفتين: نفسية لا يشغلها شأن عن شأن، ولا تتأثر ببواعث الغضب والرضا كما يتأثر الإنسان. ونفسية أخرى نسبتها إلى الأخرى نسبة المأمور من آمر، والمسود من سيده، لكن مع الحب والقرب، فهذه الآيات الكريمة ليست إلا كلام سيد عزيز يقول لعبده الحبيب: أخطأت فيما مضى وما كان لك أن تفعل، ولكني عفوت وغفرت وأذنت لك بمثله في المستقبل!

المثال الثالث: قوله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾(٢) وذلك أن النبي ﷺ كان مشتغلاً ذات يوم بدعوة أشراف من قريش إلى الإسلام، وإذا عبد الله بن أم مكتوم يجيء ويسأل الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان عبد الله رجلاً أعمى تشرف بهداية الإسلام من قبل، ولم يقدر تشاغله ﷺ بدعاية هؤلاء الصناديد الذين كان النبي ﷺ حريصاً على هدايتهم كل الحرص، وكان يستميلهم ويتألفهم إليه طمعاً في أن يسلموا، فلا يلبث جماهير العرب أن تقتدي بهم في إسلامهم، وفي أي شيء جاء هذا الصحابي يسأل؟ إنه مسلم، فطبيعي أنه لم يسأله

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٩.
(٢) سورة عبس، الآيات: ١ ـ ١١.

عن الإسلام بل جاء يستزيده من الهداية والعلم ويقول: يا رسول الله علمني مما علمك الله.

وجد الرسول نفسه بين قوم غلاظ مشركين يدعوهم إلى الإسلام، ورجل وديع مسلم يستزيده من العلم فآثر الإقبال على أولئك الصناديد، وعبس في وجه ابن أم مكتوم هذا وأعرض عنه، لا احتقاراً له وغضاً من شأنه، ولكن حرصاً على هداية هؤلاء وخوفاً من أن تفوت هذه الفرصة السانحة لدعوتهم، فأنزل الله على رسوله تلك الآيات السالفة، يعاتبه فيها ذلك العتاب القاسي الخشن، ويفهمه أن حرصه على الهداية ما كان ينبغي أن يصل به إلى حد الإقبال الشديد على هؤلاء الصناديد وهم عنه معرضون، ولا إلى حد الإعراض العابس في وجه هذا الضعيف الأعمى وهو عليه مقبل.

وكأني بك تحس معي حرارة هذا العتاب، وذلك لتقرير مبدأ من المبادىء العالية، هو الإعراض عن المعرضين مهما عظم شأنهم، والإقبال على المقبلين مهما رق حالهم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1] ولعلك تلمح معي من وراء هذا العتاب، رحمة الرسول بأعدائه وإخلاصه لدعوته، وتفانيه في وظيفته، وحرصه على هداية الناس أجمعين. زاده الله شرفاً على شرفه وعزاً على عزه آمين.

الوجه التاسع: ما نزل بعد طول انتظار

ومعنى هذا أن في القرآن آيات كثيرة تناولت مهمات الأمور، ومع ذلك لم تنزل إلا بعد تلبث وطول انتظار، فدل هذا على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد، لأنه لو كان كلام محمد ما كان معنى لهذا الانتظار فإن الانتظار في ذاته شاق وتعلقه بمهمات الأمور يجعله أشق، خصوصاً على رجل عظيم يتحدى قومه بل يتحدى العالم كله!

ولبيان هذا الوجه نمثل بأمثلة خمسة:

أولها: حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، نزل فيه قول الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[١] فأنت تفهم معي من هذه الآية أن محمداً ﷺ كان يتحرق شوقاً إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، ومن أجل ذلك كان يقلب وجهه في السماء تلهفاً إلى نزول الوحي بهذا التحويل، ولقد طال به الأمر سنة ونصف سنة وهو يستقبل بيت المقدس، فلو كان القرآن من وضعه لنفس عن نفسه وأسعفها بهذا الذي تهفو إليه نفسه ويصبو إليه قومه لأن الكعبة في نظرهم، هي مفخرتهم ومفخرة آبائهم من قبلهم.

ثانيها: حادث الإفك، وهو من أخطر الأحداث وأشنعها، لم ينزل القرآن فيه إلا بعد أن مضى على الحادث قرابة أربعين يوماً، على حين أنه يتصل بعرض الرسول وعرض صديقه الأول أبي بكر، وقام على اتهام أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ورميها بأقذر العار وهو عار الزنى، فلو كان القرآن كلام محمد ما بخل على نفسه بتلك الآيات التي تنقذ سمعته وسمعة زوجه الحصان الطاهرة؛ ولما انتظر يوماً واحداً في القضاء على هذه الوشايات الحقيرة الآثمة، التي تولى إكبرها أعداء الله المنافقون. اقرأ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[٢] في سورة النور. ثم حدثني بعد قراءتها: ألم يكن الواجب على محمد ﷺ أن يعجل الحكم بهذه البراءة لو كان الأمر إليه، خصوصاً أنه قد علم الناس وجوب الدفاع عن العرض ولو بالنفس؟ ثم أخبرني: ألا ترى فارقاً كبيراً بين هذه اللغة الجريئة القاطعة، المنذرة والمبشرة، التي صيغت بها آيات البراءة، وبين لغة الرسول الحذرة المتحفظة التي رويت عنه في هذه الحادثة؟ إن كنت في شك فأمامك آيات البراءة وهاك كلمتين مما أثر عنه في هذا الأمر الجلل: ورد أنه قال حين طال الانتظار وبلغت القلوب الحناجر: «إني لا أعلم إلا خيراً». وورد أنه قال قبيل الساعة التي نزلت فيها آيات البراءة: «يا عائشة، أما إنه قد بلغني كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله»[٣].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة النور، الآيات: ١١ ـ ٢٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الشهادات، باب: (١٥)، والمغازي، باب: (٣٤)، وتفسير سورة: ١٢ و١٢٤ وصحيح مسلم، كتاب: التوبة، حديث: ٥٦.

فهل يجوز في عقل عاقل أن يكون صاحب هذا الكلام هو صاحب آيات البراءة؟ دع عنك الأسلوبين ولكن تأمل النفسيتين المتمزتين في الكلامين، تميز السيد من المسود، والعابد من المعبود!

ثالثها: ما ورد من أن النبي ﷺ سئل عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فقال لسائليه: «ائتوني غداً أخبركم» ولم يقل: إن شاء الله فأبطأ عليه الوحي حتى شق ذلك عليه وكذبته قريش وقالوا: ودعه ربه وقلاه أي تركه ربه وأبغضه، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾(١) ثم نهاه مولاه أن يترك المشيئة مرة أخرى! إذ قال له في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾(٢). ولما نزل جبريل بعد هذا الإبطاء والتمهل قال له ما حكاه الله عنه في سورة مريم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾(٣). يعني: أن عدم الإسراع بالنزول لم يكن سببه إعراض الله عنه كما يزعمون، بل كان لعدم الإذن به لحكم بالغة، قد عرضنا لبعضها في الكلام على أسرار تنجيم القرآن بالجزء الأول وحسبك هنا أن يستدل المنصف بهذا الإبطاء والتراخي على أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم لا كلام النبي الكريم.

رابعها: ما ورد من أنه لما نزل قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾(٤) انخلعت قلوب الصحابة وذعروا ذعراً شديداً؛ لأنهم فهموا من هذه الآية أن الله تعالى سيحاسبهم على كل ما يجول بخاطرهم ولو كانت خواطر رديئة، ثم سألوا فقالوا: يا رسول الله، أنزلت علينا هذه الآية لا نطيقها، فقال لهم النبي ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؛ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غُفرانك ربنا وإليك المصير» فجعلوا يقولونها ويضرعون إلى الله بها حتى أنزل ـ تقدست أسماؤه ـ الآية الأخيرة من سورة البقرة وهي: ﴿لَا يُكَلِّفُ

---

(١) سورة الضحى، الآيات: ١ ـ ٣.
(٢) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

﴿ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة، فسكنت نفوسهم واطمأنت قلوبهم، وفهموا أنهم لا يحاسبون إلا على ما يقع تحت اختيارهم وفي دائرة طاقتهم من نية وعزم وقول وعمل، أما خلجات الضمائر العابرة، وخطرات السوء ولو كانت كافرة، فلا يتعلق بها تكليف، لأنها ليست في مقدور العبد، والقرآن يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

فأنت ترى أن النبي ﷺ لم يبين لهم هذا البيان حين سألوه، لأنه لم يوحَ وقتئذٍ إليه، ولو كان من وحي نفسه كما يقول الأفاكون لأسعف أصحابه بالآية الأخيرة، وأنقذهم من هول هذا الخوف الذي أكل قلوبهم لا سيما أنهم أصحابه وهو نبيهم، ومن خلقه الرحمة خصوصاً بهم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾[2]. وأيضاً لو كان يملك هذا الكلام لعاجلهم بالبيان، وإلا كان كاتماً للعلم وكاتم العلم ملعون، فأين يذهبون؟

خامسها: ورد أن كبير المنافقين عبد اللّه بن أبيّ لما توفي، قام إليه النبي ﷺ فكفنه في ثوبه وأراد أن يستغفر له، فقال له عمر: أتستغفر له وتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: «إنما خيرني ربي فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[3] وسأزيده على السبعين» ثم صلى عليه. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[4] فترك الصلاة عليهم.

اقرأ الرواية بتمامها في الصحيحين[5]، ثم نبئني: هل يعقل أن يكون القرآن كلام محمد مع ما ترى من أنه ﷺ فهم في الآية الأولى غير ما فهم عمر ثم جاءت الآية الثانية صارفة للرسول عن فهمه ومؤيدة لعمر؟ أفما كان الأجدر به لو كان القرآن كلامه أن يكون هو أدرى الناس بمراده منه وأعرفهم بحقية المقصود من ألفاظه، وأن يجيء آخر الكلام مؤيداً لما فهمه هو لا لما فهمه غيره؟ لكن الواقع غير ذلك، فقد سبق إلى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٠.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٨٤.
(٥) صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: (٨٤)، صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: (٢)، حديث: ٢٥.

فهمه ﷺ أن كلمة (أو) في الآية الأولى للتخير، وفهم عمر أنها للمساواة وفهم الرسول أن المراد بكلمة (سبعين) حقيقة العدد المعروف في العشرات بين الستين والثمانين، وفهم عمر أنها للمبالغة لا للتحديد فلا مفهوم لها، ولما كان ما فهمه الرسول جارياً على أصل الوضع في معنى (أو) وفي معنى (سبعين مرة تمسك برأيه، خصوصاً أن فيه رحمة برجل من الناس وإن كان منافقاً، وكان ﷺ مطبوعاً على الرحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾(١).

الوجه العاشر: مظهر النبي ﷺ عند هبوط الوحي عليه

وبيان ذلك أن النبي ﷺ كان في أول عهده بالوحي، يتعجل في تلقفه، ويحرك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحي من إيحائه إليه، وذلك للإسراع بحفظه والحرص على استظهاره حتى يبلغه للناس كما أنزل، وكان عليه الصلاة والسلام يجد من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة العظمى التي يحسها من نزول الوحي عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى أن جسمه ليثقل بحيث يحس ثقله من بجواره، وحتى إن وجهه ليحمر ويسمع له غطيط، روى مسلم(٢) أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه الشريف، فاقتضت رحمة الله بمصطفاه أن يخفف عنه هذا العناء فأنزل عليه في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾(٣). وبهذا اطمأن الرسول ثقة بأن الله قد تكفل له بأن يجمع القرآن في صدره، وأن يقرأه على الناس كاملاً لا ينقص كلمة ولا حرفاً، وأن يبين له معناه فلا تخفى عليه خافية منه. وكذلك قال الله في سورة الأعلى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾(٤) وقال له مرة ثالثة في سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾(٥).

ألا ترى في هذا كله نوراً يهدي إلى أن القرآن كلام الله وحده، ومحال أن يكون

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٢) في كتاب: الفضائل، حديث: ٨٨.
(٣) سورة القيامة، الآيات: ١٦ ـ ١٩.
(٤) سورة الأعلى، الآية: ٦.
(٥) سورة طه، الآية: ١١٤.

كلام محمد، وإلا لما احتاج إلى هذا العناء الذي كان يعانيه في نزول القرآن عليه، ولكان الهدوء والسكون والصمت أجدى في إنضاج الفكرة وانتقاء ألفاظها لديه، ولما كان ثمة من داع إلى أن يُطمأن على حفظه وتبليغه وبيان معانيه!. أضف إلى ذلك أن هذه الحال التي كانت تعروه ﷺ عند الوحي، لم تكن من عادته في تحضير كلامه لا قبل النبوة ولا بعدها، ولم تكن من عادة أحد من قومه، بل كان ديدنهم جميعاً تحضير الكلام في نفوسهم وكفى!

الوجه الحادي عشر: آية المباهلة

وذلك أن القرآن دعا إلى المباهلة ـ وهي مفاعلة من الابتهال والضراعة إلى الله بحرارة واجتهاد فأبى المدعوون وهم النصارى من أهل نجران، أن يستجيبوا لها وخافوها ولا ذوا بالفرار منها، مع أنها لا تكلفهم شيئاً سوى أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم ويأتي الرسول بأبنائه ونسائه، ثم يجتمع الجميع في مكان واحد يبتهلون إلى الله ويضرعون إليه، بإخلاص وقوة، أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذباً من الفريقين. قال سبحانه في آل عمران: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾[1].

ورد أنه عليه السلام لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى ننظر، فقال العاقب وكان ذا رأيهم: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، وما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم. ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً للحسين آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمّنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني!. فقالوا: يا أبا القاسم، رأينا ألا نباهلك فصالحهم النبي ﷺ على ألفي حلة كل سنة. فقال عليه

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٦١ ـ ٦٢.

السلام: «والذي نفسي بيده، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير».

وإنما ضم الأبناء والنساء وإن كانت المباهلة مختصة به وبمن يكذبه، لأن ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حتى جرؤ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته إن تمت المباهلة، وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على قرب مكانهم ومنزلتهم، وفيه دليل على صحة نبوة النبي ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك. اهـ من تفسير النسفي.

ونقول: أليس هذا دليلاً مادياً على أن هذا القرآن كلام القادر على إنزال اللعنة وإهلاك الكاذب، ثم أليس قبول محمد لهذه المباهلة مع امتناع أعدائه دليلاً على أن صدقه في نبوته كان أمراً معروفاً مقرراً حتى في نفوس مخالفيه من أهل الكتاب، وإلا فلماذا نكصوا على أعقابهم ولاذوا بالفرار من المباهلة (تأمل كلمة العاقب وأسقف نجران في الرواية الآنفة). لكنه الحقد والكبرياء أكلا قلوبهم، فحسدوه أن آتاه الله النبوة دونهم مع أنه أمي وهم أهل كتاب، وكبر عليهم أن يؤمنوا به ويدينوا له فتضيع رياستهم وتنحط منزلتهم في نفوس العامة، والحسد والكبر من الحجب الكثيفة التي تحول بين المرء وسعادته، فالحسود لا يسود، والمتكبر مخذول لا يسترشد ولا يتوب: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[1]. معاذاً بك اللّهم من مقتك وغضبك، ومن كل ما يؤدي إلى مقتك وغضبك، آمين.

الوجه الثاني عشر: عجز الرسول عن الإتيان ببدل له

وذلك أن أعداء الإسلام طلبوا من النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو أن يبدله، فلم يفعل، وما ذاك إلا لأن القرآن ليس كلامه، بل هو خارج عن طوقه، آت من

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

فوقه، ولو كان كلامه لاستطاع أن يأتي بغيره وأن يبدله حين اقترحوا عليه، وحينئذ يكتسب أنصاراً إلى أنصاره، ويضم أعواناً إلى أعوانه، ويكون ذلك أروج لدعوته التي يحرص على نجاحها، لكنه أعلن عجزه عن إجابة هذه المقترحات وأبدى مخاوفه إن هو أقدم على هذا الذي سألوه، وتنصل من نسبة القرآن مع أنه الفخر كل الفخر، وألقمهم حجراً في أفواههم بتلك الحجة التي أقامها عليهم، وهي أنه نشأ فيهم لا يعرف ولا يعرفون عنه ذلك الذي جاء به وهو القرآن.

اقرأ ـ إن شئت ـ هاتين الآيتين من سورة يونس: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾[١] والمعنى: أن القرآن فوق طاقتي وليس من مقدوري، وما أنا إلا ناقل له أتبع ما يوحى إليَّ منه، وإني أخاف سطوة صاحب هذا الكتاب إذا أنا تلاعبت بنصوصه أو غيرت فيه، فالقرآن كلامه، ولو أراد ألا أكون رسولاً بينه وبينكم، ما كانت لي حيلة إلى أن أتلو هذا الكتاب عليكم وتأخذوه عني، فقد نشأت بينكم ومكثت أكثر من أربعين سنة قبل نزوله ـ وهو عمر طويل ـ وأنتم لا تعرفون مني هذا الاستعداد الأعلى، ولا تسمعون مني مطلقاً مثل هذا الكلام المعجز، ولم تأخذوا عليَّ قط أني كذبت مرة على عبد من عباد الله، فكيف أكذب على الله بعد هذا العمر الطويل؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٢] يا لها كلمةً فيها من لذعة التعنيف والتخجيل بمقدار ما فيها من لفت النظر إلى قوة الدليل!!

الوجه الثالث عشر: الآيات التي تجرد الرسولَ من نسبته إليه

وذلك أنك تقرأ القرآن فتجد فيه آيات كثيرة، تجرد الرسول محمداً ﷺ من أن يكون له فيها حرف أو كلمة، وتصفه بأنه كان قبل نزول القرآن لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وتمتن عليه بأن الله آتاه الكتاب والحكمة بعد أن كان بعيداً عنهما وغير مستعد لهما ولم يكن عنده رجاء من قبل لأن يكون منهل هذا الفيض ولا مشرق ذلك النور، اقرأ قوله سبحانه في سورة النساء: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ

(١) سورة يونس، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾﴾(١). وقوله في ختام سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾(٢). وقوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾(٣).

بل كان ﷺ يخاف انقطاع هذا المدد الفياض عنه، فإذا فتر الوحي عراه من الحزن على فترته والتلهف على عودته، ما يجعله يمشي في الشعاب والجبال كأنه يتلمسه، حتى لقد كان يتردى مرة من شاهق وهو يطلبه!. وأكثر من هذا أنه كان يخشى أن يتفلت منه شيء أثناء إيحائه إليه لولا أن طمأنه الله عليه ـ كما تقدم شرحه في الوجه العاشر ـ وأكثر من هذا وذاك أنه كان يخاف أن ينزع الله من قلبه ما أنزل عليه وحفظه إياه: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾﴾(٤).

قل لي ـ وربك ـ هل يتصور منصف على وجه الأرض أن القرآن كلام محمد؛ بعد ما قصصنا عليك من هذه الآيات التي تجرده من إنشائه ووضعه، بل تجرده من رجاء نزوله عليه قبل مبعثه، ومن رجاء بقائه لديه بعد نزوله عليه؟ وهل يصح في الأذهان أن أحدة يبتكر بعبقريته أمراً هو مفخرة المفاخر ومعجزة المعجزات، ثم يقول للعالم في صراحة: ليس هذا الفخر فخري، وما هو من صنعي، وما كان لدي استعداد أن آتي بشيء منه، وأنتم تعرفونني وتعرفون استعدادي من قبل؟

ألا إن هذا يخالف العقل والمنطق، ويجافي العرف والعادة، وينافي مقررات علم النفس وعلم الاجتماع، فإن النفوس البشرية مجبولة على الرغبة في جلائل الأمور ومعاليها، مطبوعة على حب كل ما يخلد ذكرها ويرفع شأنها، لا سيما إذا كان ذلك نابعاً منها وصادراً عنها، وكان صاحب هذه النفس صدوقاً ما كذب قط، رافعاً عقيرته بزعامة الناس ودعوتهم إلى الحق، وليس شيء أجل شأناً ولا أخلد ذكراً من القرآن الكريم، الذي جمع الله به شمل أمة وأقام به خير ملة، وأسس به أعظم دولة فما كان

(١) سورة النساء، الآية: ١١٣.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) سورة القصص، الآيتان: ٨٦.
(٤) سورة الإسراء، الآيات: ٨٦ ـ ٨٧.

لمحمد أن يزهد في هذا المجد الخالد، ولا أن يتنصل من نسبته إليه لو كان من وصفه وصنعه، وهو يدعو الخلق إلى الإيمان به وبما جاء به!.

وأي وجه لمحمد في أن يتنصل من نسبة القرآن إليه وهو صاحبه؟ إنه إن كان يطلب الوجاهة والعلو والمجد، فليس شيء أوجه له ولا أعلى ولا أمجد من أن يكون هذا القرآن كلامه وإن كان يطلب هداية الناس، فالناس يسرهم أن يأخذوا الهداية مباشرة ممن يُعجز الجن والإنس بكلامه، ويتحدى كل جيل وقبيل ببيانه، ويقهر كل معارض ومكابر ببرهانه، ولو كان القرآن من تأليف محمد لأثبت به ألوهيته بدلاً من نبوته، لأن هذا القرآن لا يمكن أن يصدر إلا عن إلّه كما بينا في الوجوه السالفة للإعجاز، وإذن لكانت تلك الألوهية أبلغ في نجاح دعوته، وأرجى في ترويج ديانته، لأن الناس تبهرهم الألوهية، أكثر مما تبهرهم النبوة، ويشرفهم أنهم أتباع إلّه أكثر من أن يشرفهم أنهم أتباع رسول لم يخرج ولن يخرج يوماً من أرض العبودية، ولم يرتق ولن يرتقي يوماً إلى سماء الربوبية.

العبـــد عبـــد وإن تعـــالـــى والمـولـى مـولـى وإن تـنـزل

ولهذا كان أعداء الرسل كثيراً ما يعظم عليهم أن يخضعوا لرجل منهم، وكانوا يعجبون أن يوحى إلى بشر مثلهم ويقترحون أن يروا الله جهرة أو تنزل لهم الملائكة عياناً، فلو كان محمد صاحب هذا التنزيل، لخرج عن مستوى الخلق جملة، ولظهر في أفق الألوهية، يطل على العالم بعظمة تنقطع دونها الأعناق وتخضع لها الرقاب، وأن يحقق كل ما اقترحه معارضوه من الآيات، ولكنه اعترف بعبوديته حينذاك، وتبرأ من حوله وقوته إزاء هذا الكتاب وغيره من المعجزات وخوارق العادات. اقرأ في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠ ـ ٩٣.

الوجه الرابع عشر: تأثير القرآن ونجاحه

ومعنى هذا أن القرآن بلغ في تأثيره ونجاحه مبلغاً خرق به العادة في كل ما عرف من كتب الله والناس، وخرج عن المعهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام، وبيان ذلك أن الإصلاح العام الذي جاء به القرآن والانقلاب العالمي الذي تركه هذا الكتاب، ما حدث ولم يكن ليحدث في أي عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه إلا على أساس من الإيمان العميق على وجدان قوي، بحيث له من السلطان القاهر على النفوس، والحكم النافذ على العواطف والميول، ما يصد الناس عن نهجهم الأول في عقائدهم التي توارثوها، وعبادتهم التي ألفوها، وأخلاقهم التي نشأوا عليها، وعاداتهم التي امتزجت بدمائهم، وما يحملهم على اعتناق هذا الدين الجديد الذي هدم تلك الموروثات فيهم، وحارب تلك الأوضاع المألوفة لدينهم.

وهذا الأساس الذي لا بد منه، تقصر عنه في العادة جميع الكتب التعليمية التي يؤلفها العلماء والمصلحون، وتعجز عن إيجاده كافة القوانين البشرية التي يضعها القادة والمشترعون، لأن قصارى هذه الكتب والقوانين ـ إذا وفقت ـ أن تشرح الحقائق وتبين الواجبات، لا أن تحمل على الإيمان والإذعان، وتدفع إلى العمل بوحي هذا الإيمان وإذا فرض أن يؤمن بها أصحاب الاستعداد السليم، فإيمانهم مجرد حينئذ من قوة الدفع ودفعة التحويل، ولا سبيل في العادة إلى التأثير بها على الجماهير ونجاحها فيهم نجاحاً عاماً إلا بأمرين: أحدهما تربية الأحداث وترويضهم عليها علماً وعملاً من عهد الطفولة، والآخر قوة حاكمة تحمل الكبار على احترامها حملاً بالقوة والقهر، ومع هذا وذاك، فتربية الصغار على هذا الغرار هيهات أن تكون تربية استقلالية؛ بل هي تقليدية تفقد الدليل والبرهان، وكذلك إجبار الكبار؛ هيهات أن يصل إلى موضع الإذعان والوجدان!.

لكن القرآن الكريم وحده، هو الذي نفخ الإيمان في الكبار والصغار نفخاً، وبثه روحاً عاماً، وأشعر النفوس بما جاء فيه إشعاراً، ودفعها إلى التخلي عن موروثاتها ومقدساتها جملة، وحملها على التحلي بهديه الكريم علماً وعملاً، على حين أن الذي أتى بهذا القرآن رجل أمي لا دولة له ولا سلطان، ولا حكومة ولا جند، ولا اضطهاد ولا إجبار، إنما هو الاقتناع والرغبة والرضا والإذعان، ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ

مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[١]. أما السيف ومشروعية الجهاد في الإسلام، فلم يكن لأجل تقرير عقيدة في نفس، ولا لإكراه شخص أو جماعة على عبادة، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن إذلاله واضطهاده، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحق حرة طليقة، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

هذا الأساس الذي وضعه القرآن وحده هو سر نهضته، وإن شئت فقل هو نار ثورته، بل هو نور هدايته، والروح الساري لإحياء العالم بدعوته، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي له النفوس والمشاعر، وملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم، يخشون بأسه وصولته، ويخافون تأثيره وعمله، أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحروب الجائحة، لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هياكل الأجسام والأشباح، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى حرائر النفوس وكرائم الأرواح، بما لم يعهد له نظير في أية نهضة من النهضات!.

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذا الوجه من وجوه إعجازه، حين سمى الله كتابه روحاً من أمره بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٢] وحين سماه نوراً بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾[٣] وحين وصف بالحياة والنور من آمن به في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٤]؟ وفي قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[٥]. وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٦].

هذا التأثير الخارق أو النجاح الباهر الذي نتحدث فيه، أدركه ولا يزال يدركه كل من قرأ القرآن في تدبر وإمعان ونصفه، حاذقاً لأساليبه العربية، ملماً بظروفه وأسباب

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

نزوله، أما الذين لم يحذقوا لغة العرب ولم يحيطوا بهذه الظروف والأسباب الخاصة، فيكفيهم أن يسألوا التاريخ عما حمل هذا الكتاب من قوة محولة غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك، عن طريق استيلائها على قلوب المخاطبين به لأول مرة استيلاء أشبه بالقهر وما هو بالقهر، وأفعل من السحر وما هو بالسحر، سواء في ذلك أنصاره وأعداؤه، ومحالفوه ومخالفوه! وما ذاك إلا لأنهم ذاقوا بسلامة فطرتهم العربية بلاغته، ولمسوا بحاستهم البيانية إعجازه، فوجد تياره الكهربائي موضعاً في نفوسهم لشرارة ناره، أو لهطول غيثه وانبلاج أنواره!.

تأثيره في أعدائه:

أما أعداؤه المشركون، فقد ثبت أنه جذبهم إليه بقوته في مظاهر كثيرة، نذكر بعضها على سبيل التمثيل:

المظهر الأول: أن هؤلاء المشركين مع حربهم له، ونفورهم مما جاء به، كانوا يخرجون في جنح الليل البهيم يستمعون إليه والمسلمون يرتلونه في بيوتهم، فهل ذاك إلا لأنه استولى على مشاعرهم، ولكن أبى عليهم عنادهم وكبرهم وكراهتهم للحق أن يؤمنوا به: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾[1].

المظهر الثاني: أن أئمة الكفر منهم كانوا يجتهدون في صد رسول الله ﷺ عن قراءته في المسجد الحرام وفي مجامع العرب وأسواقهم، وكذلك كانوا يمنعون المسلمين من إظهاره، حتى لقد هالهم من أبي بكر أن يصلي به في فناء داره، وذلك لأن الأولاد والنساء كانوا يجتمعون عليه يستمعون بلذة هذا الحديث ويتأثرون به ويهتزون له!

المظهر الثالث: أنهم ذعروا ذعراً شديداً من قوة تأثيره ونفوذه إلى النفوس على رغم صدهم عنه واضطهادهم لمن أذعن له، فتواصوا على ألا يسمعوه، وتعاقدوا على أن يلغوا فيه إذا سمعوه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾[2]!.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٠.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

المظهر الرابع: أن بعض شجعانهم وصناديدهم، كان الواحد منهم يحمله طغيانه وكفره وتحمسه لموروثه، على أن يخرج من بيته شاهراً سيفه، معلناً غدره، ناوياً القضاء على دعوة القرآن ومن جاء بالقرآن، فما يلبث حين تدركه لمحة من لمحات العناية، وينصت إلى صوت القرآن في سورة أو آية، أن يذل للحق ويخشع، ويؤمن بالله ورسوله وكتابه ويخضع، وإن أردت شاهداً على هذا فاستعرض قصة إسلام عمر وهي مشهورة، أو فتأمل كيف أسلم سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس هو وابن أخيه أسيد بن حضير، رضي الله عنهم أجمعين، وإليك كلمة قصيرة عن إسلام سعد وأسيد فيها نفع كبير:

تروي كتب السيرة أن رسول الله ﷺ وهو في مكة قبل الهجرة، أرسل مع أهل المدينة الذين جاؤوا وبايعوه بيعة العقبة، مبعوثين جليلين يعلمانهم الإسلام وينشرانه في المدينة، هما مصعب بن عمير وعبد اللّه بن أم مكتوم رضي الله عنهما، وقد نجح هذان في مهمتهما أكبر نجاح، وأحدثا في المدينة ثورة فكرية أو حركة تبشيرية جزع لها سعد ين معاذ سيد قبيلة الأوس، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حصير ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا فتزجرهما. فلما انتهى إليهما أسيد قال لهما: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ ثم هددهما وقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة، رضي الله عن مصعب فقد تغاضى عن هذا التهديد وقال لأسيد في وقار المؤمن وثباته: أوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، ثم قرأ مصعب القرآن وأسيد يسمع، فما قام من مجلسه حتى أسلم، ثم كر راجعاً إلى سعد فقال له: والله ما رأيت بالرجلين بأساً، فغضب سعد وذهب هو نفسه ثائراً مهتاجاً، فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيداً وانتهى الأمر بإسلامه أيضاً، ثم كر راجعاً فجمع قبيلته وقال لهم: ما تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا. فقال سعد: كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا. فأسلموا أجمعين!.

تأثير القرآن في نفوس أوليائه:

تلك مظاهر لفعل القرآن بنفوس شانئيه، فهل تدري ماذا فعل بهم بعد أن دانوا له وآمنوا به وأصبحوا من تابعيه ومحبيه؟ لعلك لم تنس ما فعل القرآن بعمر وسعد وأسيد الذين نوهنا بهم بين يديك، ألم يعودوا من خيرة جنود الإسلام ودعاته من يوم أسلموا، بل من ساعة أسلموا؟ وهناك مظاهر أربعة لهذا الضرب أيضاً:

المظهر الأول: تنافسهم في حفظه وقراءته في الصلاة وفي غير الصلاة، حتى لقد طاب لهم أن يهجروا لذيذ منامهم من أجل تهجدهم به في الأسحار، ومناجاتهم العزيز الغفار، وما كان هذا حالاً نادراً فيهم، بل ورد أن المار على بيوت الصحابة بالليل كان يسمع لها دوياً كدوي النحل بالقرآن!. وكان التفاضل بينهم بمقدار ما يحفظ أحدهم من القرآن!. وكانت المرأة ترضى بل تغتبط أن يكون مهرها سورة يعلمها إياها زوجها من القرآن؟.

المظهر الثاني: عملهم به وتنفيذهم لتعاليمه، في كل شأن من شؤونهم تاركين كل ما كانوا عليه مما يخالف تعاليمه ويجافي هداياته، طيبة بذلك نفوسهم، طيعة أجسامهم، سخية أيديهم وأرواحهم، حتى صهرهم القرآن في بوتقته، وأخرجهم للعالم خلقاً آخر مستقيم العقيدة، قويم العبادة؛ طاهر العادة، كريم الخلق، نبيل المطمح!

المظهر الثالث: استبسالهم في نشر القرآن والدفاع عنه وعن هدايته، فأخلصوا له وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه وهو مدافع عنه، ومنهم من انتظر حتى أتاه اليقين وهو مجاهد في سبيله مضح بنفسه ونفيسه، ولقد بلغ الأمر إلى حد أن الرسول ﷺ كان يرد بعض من يتطوع بالجندية من الشباب لحداثة سنهم وكان كثير من ذوي الأعذار يؤلمهم التخلف عن الغزو حتى يضطر الرسول أن يتخلف معهم جبراً لخاطرهم، ويرسل سراياه وبعوثه بعد أن ينظمها ويزودها بما تحتاجه ولا يخرج معهم. روى مالك[1] والشيخان[2] أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل».

المظهر الرابع: ذلك النجاح الباهر الذي أحرزه القرآن في هداية العالم، فقد وجد قبل النبي ﷺ أنبياء ومصلحون، وعلماء ومشترعون، وفلاسفة وأخلاقيون، وحكام ومتحكمون، فما تسنى لأحد من هؤلاء بل ما تسنى لجميعهم أن يحدثوا مثل هذه

---

(١) موطأ الإمام مالك، كتاب: الجهاد، باب: (٤٠).
(٢) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: (٧٠)، ومسلم في كتاب: الإمارة، حديث: ١٠٣.

النهضة الرائعة التي أحدثها محمد في العقائد والأخلاق، وفي العبادات والمعاملات، وفي السياسة والإدارة وفي كافة نواحي الإصلاح الإنساني، وما كان لمحمد ولا لألف رجل غير محمد أن يأتوا بمثل هذا الدستور الصالح الذي أحيا موات الأمة العربية في أقل من عشرين سنة، ثم نفخ فيهم من روحه فهبوا بعد وفاته ينقذون العالم ففتحوا ملك كسرى وقيصر، ووضعوا رِجْلاً في الشرق ورجلاً في الغرب، وخفقت رايتهم على نصف المعمور في أقل من قرن ونصف قرن من الزمان.

أفسحر هذا؟ أم هو برهان عقلي لمحه المنصفون من الباحثين فاكتفوا من محمد ﷺ بهذا النجاح الباهر دليلاً على أنه رسول من رب العالمين؛

هذا فيلسوف من فلاسفة فرنسا يذكر في كتاب له ما زعمه دعاة النصرانية من أن محمداً لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى، ثم يفند هذا الزعم ويقول: إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواهاً متألهاً، فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الإيمان به ما لم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين!

أجل، لقد صدق الرجل، فإن فعل القرآن في نفوس العرب كان أشد وأرقى وأبلغ مما فعلت معجزات جميع الأنبياء، وإن شئت مقارنة بسيطة فهذا موسى عليه السلام قد أتى بني إسرائيل بآيات باهرة من عصا يلقيها فإذا هي ثعبان مبين، ومن يد يخرجها فإذا هي بيضاء للناظرين، ومن انفلاق البحر فإذا هو طريق يابسة يمشون فيها ناجين آمنين، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في مصر وفي طور سينا مدة التيه، فهل تعلم مدى تأثير هذه الهدايات في إيمانهم بالله ووحدانيته، وإخلاصهم لدينه ونصرة رسوله؟ إنهم ما كادوا يخرجون من البحر بهذه المعجزة الإلٰهية الكبرى ويرون بأعينهم عبدة الأصنام والأوثان، حتى كان منهم ما حكاه الله في القرآن: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾[1].

ثم لما ذهب موسى إلى مناجاة ربه واستخلف عليهم أخاه هارون عليهما السلام،

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٣٨ ـ ١٤٠.

نسوا الله تعالى وحنوا إلى ما وقر في نفوسهم من الوثنية المصرية وخرافاتها فعبدوا العجل كما تحدثت سورة الأعراف بذلك: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[1].

ولما دعاهم موسى إلى قتال الجبارين ودخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، أبوا وخالفوا وفضلوا القعود والاستخذاء، على الجلاد والنزول إلى ميادين الجهاد: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]! . . . هؤلاء أصحاب موسى فانظر إلى أصحاب محمد كيف تأثروا بالقرآن حتى ليحدث التاريخ عنهم أنهم قطعوا شجرة الرضوان؛ وهي تلك الشجرة التاريخية المباركة التي ورد ذكرها في القرآن، وما هذا إلا لأن الناس تبركوا بها، فخاف عمر إن طال الزمان بالناس أن يعودوا إلى وثنيتهم ويعبدوها، فأمر بقطعها ووافقه الصحابة على ذلك!

وكذلك يذكر التاريخ أن محمداً ﷺ استشار أصحابه حين عزم على قتال المشركين في غزوة بدر فقالوا: والله لو استعرضت بنا هذا البحر ـ يريدون البحر الأحمر ـ فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد. إنا لا نقول لك ما قال قوم موسى لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[3]: ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون!. هكذا كانوا يفضلون مصافحة المنايا في ميادين الجهاد، ويتهافتون على الغزو طمعاً في الاستشهاد! وهكذا حرصوا على الموت فوهبهم الله الحياة، وأتقنوا صناعة الموت فدانت لهم الملوك وعنت

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) سورة المائدة، الآيات: ٢٢ ـ ٢٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

الكمـــاة![1] ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾[2].
﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ﴾[3].

وجوه معلولة

ذكر بعضهم وجوهاً أخرى للإعجاز، ولكنها لا تسلم في نظرنا من طعن، لأن منها ما يتداخل بعضه في بعض، ومنها ما لا يجوز أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز بحال. ونمثل لهذا الذي ذكروه بتلك الأوجه العشرة التي عدها القرطبي، وهي:

١ ـ نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود.

٢ ـ أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب.

٣ ـ جزالته التي لا تمكن من مخلوق.

٤ ـ التصرف في الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربي.

٥ ـ الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان، كوعد المؤمنين بالنصر وغير ذلك.

٦ ـ الإخبار عن المغيبات المستقبلة التي لا يطلع عليها إلا بالوحي.

٧ ـ ما تضمنه القرآن من العلوم المختلفة التي بها قوام الأنام.

٨ ـ اشتماله على الحكم البالغة.

٩ ـ عدم الاختلاف والتناقض بين معانيه.

١٠ ـ الإخبار عن الأمور التي تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله بما لم تجر العادة بصدوره ممن لم يقرأ الكتاب ولم يتعلم ولم يسافر إلى حيث يختلط بأهل الكتاب.

فإن المتأمل في هذه الأوجه يلاحظ أن أسلوب القرآن العجيب يشمل جزالته التي لا تمكن لمخلوق، ويشمل التصرف في الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربي ويلاحظ أيضاً أن الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان كوعد المؤمنين بالنصر ينضوي تحت مضمون الأخبار بالمغيبات، وكذلك الأمور التي تقدمت من أول الدنيا إلى وقت

(١) الكماة جمع كامٍ وهو المستتر بالدرع والبيضة.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٠.

نزوله تنتظم في سلك الإخبار بالمغيبات، ويلاحظ كذلك أن الاشتمال على الحكم البالغة، وعدم الاختلاف والتناقض بين معانيه، لا يصلح واحد منها أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، لأنهما لا يخرجان عن حدود الطاقة، بل كثيراً ما نجد كلام الناس مشتملاً على حكم وسليماً من التناقض والاختلاف.

وبعضهم جعل وجه الإعجاز في القرآن هو الفصاحة وحدها، وذلك غير سديد أيضاً، لأن مجرد الفصاحة دون مراعاة لمقتضى الحال، أمر لا يخرج بالكلام عن المعهود في مقدور البشر فكثيراً ما يكون الكلام البشري فصيحاً لكن تعوزه الخصائص والنكات الزائدة التي هي مناط بلاغته في أقل درجاته فضلاً عن إعجازه.

شبهة القول بالصرفة

ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة أي صرف الله العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية، وضربوا لذلك مثلاً فقالوا: إن الإنسان كثيراً ما يترك عملاً هو من جنس أفعاله الاختيارية ومما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأقعد همته وثبط عزيمته وإما لأن حادثاً مفاجئاً لا قِبَلَ له به قد اعترضه فعطل آلاته ووسائله وعاق قدرته قهراً عنه، على رغم انبعاث همته نحوه وتوجه إرادته إليه، فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن، لم ينشأ من أن القرآن بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تسمو إليه قدرة البشر عادة، بل لواحد من ثلاثة:

أولها: أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها تتوافر لديهم.

ثانيها: أن صارفاً إلهياً زهدهم في المعارضة فلم تتعلق بها إرادتهم ولم تنبعث إليها عزائمهم، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعي.

ثالثها: أن عارضاً مفاجئاً عطل مواهبهم البيانية، وعاق قدرهم البلاغية، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على رغم تعلق إرادتهم بها وتوجه همتهم إليها.

بهذا التوجيه أو نحوه يعزى القول بالصرفة إلى أبي إسحاق الإسفراييني من أهل

السنة والنظام من المعتزلة، والمرتضى من الشيعة. وأنت إذا تأملت هذه الفروض الثلاثة التي التمسوها أو التمست لهم، علمت أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تجىء من ناحية إعجازه البلاغي في زعمهم، بل جاءت على الفرضين الأولين من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة، ولو أنهم حاولوها لنالوها، وجاءت على الفرض الأخير من ناحية عجزهم عنها لكن بسبب خارجي عن القرآن، وهو وجود مانع منعهم منها قهراً. ذلك المانع هو حماية الله لهذا الكتاب وحفظه إياه من معارضة المعارضين وإبطال المبطلين، ولو أن هذا المانع زال لجاء الناس بمثله، لأنه لا يعلو على مستواهم في بلاغته ونظمه.

تفنيد هذا القول

وهذا القول بفروضه التي افترضوها، أو بشبهاته التي تخيلوها، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق والواقع.

أما الفرض الأول: فينقضه ما سجل التاريخ وأثبت التواتر، من أن دواعي المعارضة كانت قائمة موفورة ودوافعها كانت ماثلة متآخذة وذلك لأدلة كثيرة:

منها: أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه؛ ثم سجل العجز عليهم وقال بلغة واثقة إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ولن يفعلوا ولو ظاهرهم الإنس والجن، فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا ولو كانوا أجبن خلق الله؟

ومنها: أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا مضرب المثل في الحمية والأنفة وإباء الضيم، فكيف لا يحركهم هذا التحدي والاستفزاز؟

ومنها: أن صناعتهم البيان، وديدنهم التنافس في ميادين الكلام، فكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة؟

ومنها: أن القرآن أثار حفائظهم وسفه عقولهم آبائهم، ونعى عليهم الجمود والجهالة والشرك، فكيف يسكتون بعد هذا التقريع والتشنيع؟

ومنها: أن القرآن أقام حرباً شعواء على أعز شيء لديهم وهي عقائدهم المتغلغلة فيهم، وعوائدهم المتمكنة منهم فأي شيء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المساجلة

أكثر من هذا؟ ما دامت هذه المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا.

وأما الفرض الثاني: فينقضه الواقع التاريخي أيضاً، ودليلنا على هذا ما تواترت به الأنباء، من أن بواعث العرب إلى المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم، ونالت منالها من عزائمهم، فهبوا هبة رجل واحد يحاولون القضاء على دعوة القرآن بمختلف الوسائل؛ فلم يتركوا طريقاً إلا سلكوه، ولم يدعوا باباً إلا دخلوه.

لقد آذوه ﷺ وآذوا أصحابه، فسبوا من سبوا، وعذبوا من عذبوا، وقتلوا من قتلوا.

ولقد طلبوا إلى عمه أبي طالب أن يكفه، وإلا نازلوه وإياه.

ولقد قاطعوه وقاطعوا أسرته الكريمة لا يبيعون لهم ولا يبتاعون ولا يتزوجون منهم ولا يزوجون، واشتد الأمر حتى أكلت الأسر الكريمة ورق الشجر.

ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التي تلين الحديد مفاوضات عدة وعرضوا عليه عروضاً سخية مغرية، منها أن يعطوه حتى يكون أكثرهم مالاً، وأن يعقدوا له لواء الزعامة فلا يقطعوا أمراً دونه، وأن يتوجوه ملكاً عليهم إن كان يريد ملكاً، وأن يلتمسوا له الطب إن كان به مس من الجن، كل ذلك في نظير أن يترك هذا الذي جاء به، ولما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم، فيعبد آلهتهم سنة ويعبدون إلٰهه سنة، فأبى أيضاً ونزل قول الله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1] ونزلت كذلك سورة الكافرون.

ولقد صادروه وصادروا أصحابه في عبادتهم، وانبعث شقي منهم فوضع النجاسة على ظهره ﷺ وهو يصلي، وخنقه طاغية من طواغيتهم لولا أن جاء أبو بكر فدفعه وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ ﴾[2].

ولقد اتهموه ﷺ مرة بالسحر، وأخرى بالشعر، وثالثة بالجنون، ورابعة بالكهانة.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٨.

وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم، فيبهتونه ويكذبونه أمام من لا يعرفونه، ولقد شدوا وطأتهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فراراً إلى الله بدينهم.

ولقد تآمروا على الرسول أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، لولا أن حفظه الله وحماه من مكرهم وأمره بالهجرة من بينهم.

ولقد أرسلوا إليه الأذى بعد ذلك في مهاجره، فشبت الحرب بينه وبينهم في خمس وسبعين موقعة، منها سبع وعشرون غزوة وثمان وأربعون سرية.

فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبي القرآن، وإنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل زاهدين في النزول إلى هذا الميدان؟

وهل يصح مع هذا كله أن يقال: إنهم كانوا في تشاغل عن القرآن غير معنيين به ولا آبهين له؟

وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ولم يسترع انتباههم، فلماذا كانت جميع هذه المهاترات والمصاولات؟ مع أن خصمهم الذي يزعمون خصومته قد قصر لهم المسافة، ودلهم على أن سبيلهم إلى إسكاته هو أن يأتوا بمثل أقصر سورة مما جاءهم به! أليس ذلك دليلاً مادياً على أن قعودهم عن معارضة القرآن، ليست إلا بسبب شعورهم بعجزهم عن هذه المعارضة واقتناعهم بإعجاز القرآن؟ وإلا فلماذا آثروا الملاكمة على المكالمة، والمقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف؟

وقد يظن جاهل أن حماستهم في خصومتهم هذه، ليس مبعثها شعورهم بقوة القرآن وإعجازه، وإنما مبعثها بغضهم لمحمد وأصحابه، ولكن هذا الظن يكذبه ما هو مقرر تاريخياً، وثابت ثبوتاً قطعياً، من أن محمداً ﷺ وأصحابه لم تكن بينهم وبين هؤلاء عداوة قبل نزول القرآن، بل كانوا أمة واحدة وقبيلة واحدة، وكان الرسول وأصحابه من أحب الناس إليهم لدماثة أخلاقهم، وللرحم الماسة التي بينهم.

وقد يظن آخر أن حماسة قريش في خصومتهم للنبي وأتباعه، وإنما كان مبعثها مجرد المخالفة في الدين، بقطع النظر عن إعجاز هذا القرآن الكريم، وهذا ظن

خاطىء أيضاً لأمرين: **أحدهما**: أنه كان بين المشركين في جزيرة العرب يهود وأهل كتاب يخالفونهم في الدين، فما أرّث ذلك بينهم حرباً ولا أوقد لخصومتهم ناراً، على مثل ما كان بينهم وبين محمد. **والآخر**: أنه كان يوجد بين العرب حنفاء من مقاويل الخطباء وفحول الشعراء، كأمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة، فما كان هذا ليثير حفائظهم ولا ليقفهم موقف الخصومة منهم، بل رضوا بتحنفهم ومخالفتهم لدينهم ودين آبائهم، وزادوا على ذلك أن سجلوا كلامهم في التوحيد وشعرهم في التنزيه والتمجيد، لأنهم لم يجدوا في هذا المنظوم والمنثور مثل ما وجدوا في القرآن من شدة التأثير وقوة الدفع، ذلك الكتاب الذي جاءهم من فوقهم، وكان له شأن غير شأنهم ورأوا فيه من مسحة الألوهية ما جعله روحاً من أمر الله يتحرك به كل من سمع صوته، ويهتز له كل من شام برقه، ولا سبيل إلى وقف تياره وأثره، إلا بالوقوف في وجهه والحيلولة بين الناس وبينه. روى أبو داود والترمذي[1] أن الرسول ﷺ قال: «ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي» فتأمل كلمة «أن أبلغ كلام ربي» ولم يقل: منعوني أن أتلو أو أعمل في نفسي بكلام ربي، لأن التلاوة والعمل من غير استعلان بالقرآن ونشر له، كان لا يؤثر على قريش كثيراً إنما الذي كان يحز في نفوسهم ويقضّ من مضاجعهم، هو نشر هذا النور الذي يكاد يخطف الأبصار، وإعلان هذا الكتاب الذي يجذب القلوب والأفكار، وكان من تأثيره وفتحه وغزوه للنفوس ما ألمعنا إليه في إسلام عمر وسعد وأسيد!

وأما الفرض الثالث: فينقضه ما هو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارضته، اقتناعاً بإعجازه وعجزهم الفطري عن مساجلته، ولو أن عجزهم هذا كان لطارىء مباغت عطل قواهم البيانية، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التي شرحناها ففوجئوا بما ليس في حسبانهم؛ ولكان ذلك مثار عجب لهم، ولأعلنوا ذلك في الناس ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن في ذاته، ولعمدوا إلى كلامهم القديم فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن يغضون بها من مقام القرآن وإعجازه، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، ولأمكننا نحن الآن وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر أن يتبينوا الكذب في

---

(١) سنن أبي داود، كتاب: السنة، باب: (٢٠)، وسنن الترمذي كتاب: ثواب القرآن، باب: (٢٤).

دعوى إعجاز القرآن، وكل هذه اللوازم باطلة؟ فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفة بناء على هذه الشبهة الهازلة.

ثم ألم يكف هؤلاء شهادة أعداء القرآن أنفسهم في أوقات تحليهم من عنادهم، كتلك الشهادة التي خرجت من فم الوليد (والفضل ما شهدت به الأعداء)؟

ثم ألم يكفهم ما في القرآن من وجوه الإعجاز الكثيرة التي دللنا عليها فيما سبق؟ والتي لا تزال قائمة ماثلة ناطقة إلى يومنا هذا ولا تزيدها الأيام وما يجد في العالم من علوم ومعارف وتجارب إلا وضوحاً وبياناً؟

إني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته، ثم ليشتد عجبي وأسفي حين ينسب إلى ثلاثة من علماء المسلمين نرجوهم للدفاع عن القرآن، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن!

على أنني أشك كثيراً في نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء ويبدو لي أن الطعن في نسبتها إليهم، والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم؛ أقرب إلى العقول، وأقوى في الدليل، لأن ظهور وجوه الإعجاز في القرآن من ناحية، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى، قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأي الآثم إليهم.

ولقد عودنا أعداء الإسلام أن يفتروا على رسول الله وعلى أصحابه وعلى الأئمة والعلماء، فلم لا يكون هذا منه؟

على أن الحق لا يعرف بالرجال، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال، وها قد طاش هذا الرأي في الميزان، فلنرده على قائله أياً كان:

وليس كلُّ خلافٍ جاء معتبراً إلا خلافٌ له حظٌّ من النظر

وأحب أن تلتفت إلى أن هذه الشبهة قد أثارها أعداء الإسلام فيما أثاروا وصوبوا منها سهماً طائشاً إلى القرآن وإعجازه، فلنكتف بنقضنا لها هنا عن إعادتها بين ما سنذكره في دفع الشبهات هناك إن شاء الله.

دفع الشبهات الواردة في هذا المقام

لقد كان ما ذكرناه من وجوه الإعجاز الأربعة عشر، كافياً للقضاء على كل شبهة، ولرد كل فرية ومحو كل تهمة، لولا أن المخذولين من أعداء الإسلام وجدوا آذاناً

obeikandl.com

صاغية من نفوس عزيزة علينا، وفئات متعلمة تعلماً مدنياً، فتأثروا بدجلهم، ثم رضوا أن يكونوا أبواقاً لهم، يرددون شبهاتهم، على تلاميذنا في الجامعات والمدارس، ويطلقون بخورهم على جماهيرنا في المطبوعات والأندية والمجالس، لهذا كان من واجبنا أن نحشد قوانا لتطهير الجو الإسلامي من هذا الجراثيم الفتاكة والمطاعن الجارحة الهدامة، وألا نكتفي عند المناسبة بذكر أحد المتلازمين عن الآخر، اللَّهم إلا إذا كان الأمر ظاهراً لا يحتاج إلى تنبيه أما عند الحاجة فقد نكرر ما سبق لنا ذكره، ولكن بمقدار الحاجة من غير إكثار.

ونلفت نظرك إلى ما أسلفناه من الكلام على الوحي بين مثبتيه ومنكريه، بالمبحث الثالث من هذا الكتاب (ص ٥٧ ـ ٨٤) من الجزء الأول، وإلى ما حواه هذا الكلام من أدلة علمية وعقلية، ومن تفنيد شبهات عشر تتصل بإعجاز القرآن عن قرب أو بعد.

ثم نلفت نظرك أيضاً إلى نقض تلك الشبهات الست التي أثيرت حول المكي والمدني من القرآن (ص ١٩٨ ـ ٢٣٢ بالجزء الأول).

ونرشدك إلى أننا راعينا عند كلامنا على أسلوب القرآن وإعجازه تفصيلات وتوجيهات، نعتقد أن فيها غناء عن دفع كثير من الشبهات فاحرص عليها، ثم اشدد يديك على ما يلقى إليك.

الشبهة الأولى ودفعها:

يقولون: إن محمداً ﷺ لقي بحيرا الراهب فأخذ عنه وتعلم منه، وما تلك المعارف التي في القرآن إلا ثمرة هذا الأخذ وذاك التعلم.

وندفع هذا:

أولاً: بأنها دعوى مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين، ومثل هذه الدعاوى لا تقبل ما دامت غير مدللة، وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه محمد من بحيرا الراهب؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟

ثانياً: أن التاريخ لا يعرف أكثر من أنه ﷺ سافر إلى الشام في تجارة مرتين، مرة في طفولته ومرة في شبابه. ولم يسافر غير هاتين المرتين، ولم يجاوز سطوق بصرى

فيهما، ولم يسمع من بحيرا ولا من غيره شيئاً من الدين، ولم يك أمره سراً هناك بل كان معه شاهد في المرة الأولى وهو عمه أبو طالب، وشاهد في الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التي خرج الرسول بتجارتها أيامئذٍ، وكل ما هنالك أن بحيرا الراهب رأى سحابة تظلله ﷺ من الشمس، فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن، ثم حذره عليه من اليهود، وقد رجع به عمه خوفاً عليه ولم يتم رحلته، كذلك روي هذا الحادث من طرق في بعض أسانيدها ضعف[١]. ورواية الترمذي[٢] ليس فيها اسم بحيرا، وليس في شيء من الروايات أنه ﷺ سمع من بحيرا أو تلقى منه درساً واحداً أو كلمة واحدة، لا في العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق، فأنى يؤفكون؟

ثالثاً: أن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لمحمد ﷺ، لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي بزفها، ثم ينصب نفسه أستاذاً لصاحبها الذي سيأخذ عن الله، ويتلقى من جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين، وهادي الهداة والمرشدين! وإلا كان هذا الراهب متناقضاً مع نفسه.

رابعاً: أن بحيرا الراهب لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز، لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم.

خامساً: أنه يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف، بحيث يصبح أستاذ العالم كله، لمجرد أنه لقي مصادفة واتفاقاً راهباً من الرهبان مرتين، على حين أن هذا التلميذ كان في كلتا المرتين مشتغلاً عن التعليم بالتجارة، وكان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، وكان صغيراً تابعاً لعمه في المرة الأولى، وكان حاملاً لأمانة ثقيلة في عنقه لا بد أن يؤديها كاملة في المرة الثانية؛ وهي أمانة العلم والإخلاص في مال خديجة وتجارتها.

سادساً: أن طبيعة الدين الذي ينتمي إليه الراهب بحيرا، تأبى أن تكون مصدراً

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٦١٥).

(٢) سنن الترمذي، كتاب: المناقب، باب: ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، الحديث رقم: ٣٦٢٠.

للقرآن وهداياته، خصوصاً بعد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تغيير وتحريف.

وحسبك أدلة على ذلك ما أقمناه من المقارنات السابقة بين تعاليم القرآن وتعاليم غيره، وما قررناه من الوفاء في تعاليم القرآن دون غيره، وما أشرنا إليه من أن القرآن قد صور علوم أهل الكتاب في زمانه بأنها الجهالات ثم تصدى لتصحيحها. وصور عقائدهم بأنها الضلالات ثم عمل على تقويمها، وصور أعمالهم بأنهم المخازي والمنكرات ثم حض على تركها، فارجع إلى ما أسلفناه، ثم تذكر أن فاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه، وأن الخطأ لا يمكن أن يكون مصدراً للصواب، وأن الظلام لا يمكن أن يكون مشرقاً للنور.

سابعاً: أن أصحاب هذه الشبهة من الملاحدة يقولون: إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل. فإذا كانوا صادقين في هذه الكلمة فإننا نحاكمهم في هذه الشبهة إلى القرآن نفسه، وندعوهم أن يقرؤوه ولو مرة واحدة بتعقل ونصفه، ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماؤها وكتابها في عصره؟ وليعلموا أنها ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة، بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة! إنهم إن فعلوا ذلك فـيـستريحون ويريحون الناس من هذا الضلال والزيغ، ومن ذلك الخبط والخلط، هدانا وهداهم الله فإن الهدى هداه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[1].

ثامناً: أن هذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة، لفرح بها قومه وقاموا لها وقعدوا، لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله، وكانوا أحرص الناس على تبهيته وتكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة لكنهم كانوا أكرم على أنفسهم من هؤلاء الملاحدة فحين أرادوا طعنه بأنه تعلم القرآن من غيره ولم يفكروا أن يقولوا إنه تعلم من بحيرا الراهب كما قال هؤلاء، لأن العقل لا يصدق ذلك والهزل لا يسعه، بل لجؤوا إلى رجل في نسبة الأستاذية إليه شيء من الطرافة والهزل، حتى إذا مجت العقول نسبة الأستاذية إليه لاستحالتها، قبلتها النفوس لهزلها وطرافتها، فقالوا: إنما يعلمه بشر، وأرادوا بالبشر حداداً رومياً منهمكاً بين مطرقته وسندانه، ضالاً طوال يومه في خبث الحديد وناره ودخانه، غير أنه

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.

اجتمع فيه أمران حسبوهما مناط ترويج تهمتهم أحدهما: أنه مقيم بمكة إقامة تيسر لمحمد الاتصال الدائم الوثيق به، والتلقي عنه، والآخر: غريب عنهم وليس منهم، ليخيلوا إلى قومهم أن عند هذا الرجل علم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم، فيكون ذلك أدنى إلى التصديق بأستاذيته لمحمد، وغاب عنهم أن الحق لا يزال نوره ساطعاً يدل عليه، لأن هذا الحداد الرومي أعجمي لا يحسن العربية، فليس بمعقول أن يكون مصدراً لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾[1]!

الشبهة الثانية ودفعها:

يقولون: نحن لا نشك في صدق محمد في إخباره عما رأى وسمع، ولكنا نعتقد أن نفسه هي منبع هذه الأخبار، لأنه لم يثبت علمياً أن هناك غيباً وراء المادة يصح أن يتنزل منه قرآن أو يفيض عنه علم أو يأتي منه دين، ثم ضربوا لذلك مثلاً فقالوا: إن الفتاة الفرنسية (جان دارك) الناشئة في القرن الخامس عشر الميلادي، قد حدث التاريخ عنها أنها اعتقدت ـ وهي في بيت أهلها بعيدة عن التكاليف السياسية ـ أنها مرسلة من عند اللّٰه لانقاذ وطنها ودفع العدو عنه، واعتقدت أنها تسمع صوت الوحي الإلٰهي يحضها على القتال والجهاد، وانطلقت تحت هذا التأثير فجردت حملة على أعداء وطنها وقادت الجيش بنفسها فقهرتهم ثم دارت الدائرة فوقعت أسيرة وماتت ميتة الأبطال في ميدان النزال ولا يزال ذكرها يتلألأ نوراً ويعبق أريجاً، حتى لقد قررت الكنيسة الكاثوليكة قداستها بعد موتها بزمن.

وندفع هذه الشبهة بأمور

أولها: تلك الأدلة العلمية التي أقمناها هناك على إثبات الوحي الإلٰهي الحقيقي لا الوحي النفسي الخيالي، مع دفع الشبهات الواردة عليه (بالمبحث الثالث من هذا الكتاب).

ثانيها: هذه الأدلة الأربعة عشر التي أقمناها وجوهاً لإعجاز القرآن في هذا المبحث؛ ففي كل وجه منها دفع كاف لهذه الشبهة عند التأمل والإنصاف، لأن الإنسان

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

محدود القوى والمواهب، فلا يستطيع أن يخرق النواميس الكونية العادية. وما ذكرناه من وجوه إعجاز القرآن فيه أربعة عشر دليلاً على خرق القرآن للنواميس الكونية المعتادة، وخرقها لا يملكه إلا من قهر الكون ونواميسه، وكان له السلطان المطلق على العالم وما فيه، وهو الله وحده لا محمد ولا غير محمد لا بالعقل الباطن ولا الظاهر، لا بالوحي النفسي ولا الانفعال العصبي.

ثالثها: أن الدارس لتاريخ هذه الفتاة يعلم أن أعصابها كانت ثائرة لتلك الانقسامات الداخلية التي مزقت فرنسا، والتي كانت تراها وتسمعها كل يوم بين أهلها وفي بلدها (جوارد ورمي) مع ما شاع في عهدها من خرافات كان لها أثرها في نفسها وعقلها ومخها، من تلك الخرافات أن فتاة عذراء ستبعث في هذا الزمن تخلص فرنسا من عدوها، يضاف إلى هذا أن الفتاة كانت بعيدة الخيال تسبح فيه يقظة ومناماً، وتتوهم منذ حداثتها بأنها ترى وتسمع ما لم تر ولم تسمع حتى خيل إليها أنها دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها، ولما تعدى البرغنيور على قريتها التي ولدت فيها قوي عندها هذا الخيال حتى صار عقيدة إلى غير ذلك مما يدل على أن الفتاة كانت أعصابها متهيجة تهيجاً ناشئاً عن تألمها من الحال السياسية السيئة في بلادها، وعن تأثرها بالاعتقادات الخرافية التي سادت زمنها.

وليس هذا بدعاً، فكم رأينا وسمعنا أصحاب دعايات عريضة يعتمدون فيها على مثل هذه الخيالات الباطلة، كالذين قاموا باسم المهدي المنتظر يدعون ويحاربون، وكغلام أحمد القادياني والباب البهائي اللذين أقام كل منهما نحلته الباطلة على أوهام فارغة.

لكن محمداً ﷺ لم يك عصبياً ثائراً مهتاجاً، بل كان وقوراً متزن العقل ثابت الفؤاد قوي الأعصاب. يثور الشجعان من حوله وهو لا يثور، ويشطح الناس ويسرفون في الخيال وهو واقف مع الحجة يكره الشطح والإسراف في الخيال؛ بل يحارب الإسراف في الخيال وما يستلزمه، ويرد هؤلاء المسرفين إلى حظيرة الحقائق ويحاكمهم إلى العقل، ألم تر إلى القرآن كيف يذم الشعراء الذين يركبون مطايا الخيال إلى حد الغواية ويقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ

يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[1].

وانظر كيف ينفي القرآن أنه شعر وأن الرسول شاعر فيقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[2].

وتأمل ما جاء في صحيح مسلم وغيره من أنه ﷺ أبى على عائشة أم المؤمنين أن تقول في شأن صبي من الأنصار جيء به ميتاً ليصلى عليه: طوبى لهذا لم يعمل شراً. فقال ﷺ: «أوَ غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم. وخلق النار وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم»[3] مع أن أطفال المسلمين يعلم الله أنهم في الجنة، لكن توقف الرسول وإباءه على عائشة أن تقول هذا، كان قبل أن يعلمه الله ذلك، فلم يسمح لها أن تسير مع الوهم أو الظن ما دام الأمر غيباً، ولا يعلم الغيب إلا الله.

وتدبر ما رواه البخاري[4] من أنه لما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه»؟ فقالت: بأبي أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله؟ قال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي». قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً وكذلك يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾[5].

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.
(٢) سورة يس، الآيتان: ٦٩ ـ ٧٠
(٣) أخرجه مسلم في كتاب: القدر. حديث: ٣١، وأبو داود في السنة، باب: (١٧)، والنسائي في الجنائز، باب: (٥٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب: (١٠)، والإمام أحمد: ٤١/٦، ٢٠٨.
(٤) رواه بالبخاري في كتاب: الجنائز، باب: (٣)، ومناقب الأنصار، باب: (٤٦)، وأحمد: ٤٣٦/٦.
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

فهل يعقل أن يقاس صاحب هذه الدقة البالغة والتثبت الدقيق بفتاة خفيفة سابحة في أوهامها غريقة في أحلامها؟!

رابعها: أن تلك الفتاة: جان دارك، لم تأت ولا بدليل واحد معقول على صدق أوهامها وتخيلاتها التي تزعمها وحياً وحديثاً من الله إليها، لكن محمداً ﷺ له على وحيه الذي يدعيه ألف دليل ودليل، كما سبق بيانه، فأين الثرى من الثريا؟ وأين الظلام من النور؟

خامسها: أن هذه الفتاة الهائجة الثائرة لم تكن صاحبة دعوة إلى إصلاح ولا ذات أثر باق في التاريخ، إنما كانت صاحبة سيف ومسعرة حرب في فترة من الزمن، لغرض مشترك بين الإنسان والحيوان وهو الدفاع عن النفس والوطن بمقتضى غريزة حب البقاء؛ ثم لم تلبث جذوتها أن بردت، وحماستها أن خمدت.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر[١]

فأين هذه الآنسة الثائرة من أفضل الخلق في دعوته الكبرى، وأثره الخالد في إصلاح أديان البشر وشرائعهم وأعمالهم وأخلاقهم، وفي إنقاذ الإنسانية العانية وتجديد دمها بدينه الجديد الذي قلب به أوضاع الدنيا، ونقل بسببه العالم إلى طور سعيد، بل إلى الطور السعيد الذي لولاه لدام يتخبط في الظلمات، ولبات في عداد الأموات!؟ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٢].

الشبهة الثالثة ودفعها:

يقولون: إنه ﷺ كان يلقى ورقة بن نوفل فيأخذ عنه ويسمع منه، وورقة لا يبخل عليه لأنه قريب لخديجة زوج محمد، يريدون بهذا أن يوهموا قراءهم وسامعيهم بأن هذا القرآن استمد علومه من هذا النصراني الكبير الذي يجيد اللغة العبرية ويقرأ بها ما شاء الله.

وندفع هذه الشبهة بمثل ما دفعنا به ما قبلها، ونقرر أنه لا دليل عندهم على هذا

---

(١) هذا البيت من كلام مضاض بن عمرو الجرهمي.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

الذي يتوهمونه ويوهمون الناس به، بل الدليل قائم عليهم فإن الروايات الصحيحة تثبت أن خديجة ذهبت بالنبي ﷺ حين بدأه الوحي إلى ورقة، ولما قص الرسول قصصه قال: هذا هو الناموس الذي أنزل الله على موسى، ثم تمنى أن يكون شاباً فيه حياة وقوة ينصر بهما الرسول ويؤازره حين يخرجه قومه، ولم تذكر هذه الروايات الصحيحة[1] أنه ألقى إلى الرسول عظة أو درس له درساً في العقائد أو التشريع ولا أن الرسول كان يتردد عليه كما يتوهمون أو يوهمون، فأنى لهم ما يقولون؟ وأي منصف يسمع كلمة ورقة هذه ولا يفهم منها أنه كان يتمنى أن يعيش حتى يكون تلميذاً لمحمد، وجندياً مخلصاً في صفة ينصره ويدافع عنه في وقت المحنة؟. ولكن القوم ركبوا رؤوسهم على رغم ذلك، وحاولوا قلب الأوضاع وإيهام أن ورقة هو الأستاذ الخصوصي الذي استقى منه محمد دينه وقرآنه: ألا ساء ما يحكمون؟

الشبهة الرابعة ودفعها:

يقولون: إن إعجاز القرآن للبشر عن أن يأتوا بمثله، لا يدل على قدسيته وأنه كلام الله، وشاهد ذلك أن لكل متأدب أسلوباً خاصاً به يتبع استعداده الأدبي ومزاجه الشخصي، وهذا الأسلوب الخاص يستحيل على غيره أن يأتي بمثله ضرورة اختلاف مواهب المتأدبين وأمزجتهم، ومع هذا فإعجاز كل أسلوب لغير صاحبه، وعجز كل متأدب عن الإتيان بأسلوب غيره، لم يضف على الأساليب البشرية شيئاً من القدسية وأنها كلام الله، فكذلك القرآن يزعمون أنه كلام محمد ويعترفون بإعجازه على هذا النحو.

وندفع هذه الشبهة:

أولاً: بوجوه الإعجاز التي بسطناها سابقاً غير وجه الإعجاز بالأسلوب.

ثانياً: أن هذه الشبهة مغالطة، فإن التحدي بالقرآن ليس معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بنفس صورته الكلامية ومنهاجه المعين الذي انفرد به أسلوبه، حتى ترد هذه الشبهة، بل معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بكلام من عندهم أياً كانت صورته ومزاجه، وأياً كان نمطه ومنهاجه، لكن على شرط ألا يطيش في الميزان، إذا قيس هو والقرآن بمقياس واحد من البيان، بل يظهر أنه يماثله أو يقارنه في خصائصه، وإن كان على

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي، باب (٣)، والأنبياء، باب: (٢١)، ومسلم في الإيمان، حديث: ٢٥٢، وأحمد، ٦/٢٢٣.

صورة بيانية غير صورته، هذا هو ما يتحداهم به الرسول، وهو القدر الذي يتنافس فيه البلغاء عادة فيتماثلون أو يتفاضلون، مع احتفاظ كل منهم بمنهاجه الخاص ونمطه المعين.

ومثال ذلك أن يتبارى قوم في العدو والجري إلى هدف واحد، ويرسم لكل واحد من هؤلاء المتبارين طريق معين بحيث لا يمشي أحدهم من طريق صاحبه، ولا يضع قدمه في موضع قدم أخيه، بل يمشي في طريقه هو غير مزاحِم ولا مزاحَم، ويسير موازياً لقرنه في المبدأ وفي الاتجاه، ثم يمضون جميعاً إلى الهدف المشترك الذي إليه يتسابقون، وإذا هم بعد ذلك بين سابق مبرز، ولاحق متخلف، ومساو متكافىء، دون أن يكون اختلاف طرقهم قادحاً فيما يكون بينهم من هذا التفاضل أو التماثل، بل يعرف التناسب بينهم بمعرفة نسبة ما قطعه كل من طريقه إلى ذلك الهدف المشترك . . . كذلك المتنافسون في ميدان البيان، يختار كل منهم طريقته التي يستمدها من مزاجه الشخصي واستعداده الخاص للوصول إلى الغاية البيانية العامة. ثم هم بعد ذلك يتفاوتون أو يتعادلون، بمقدار وفائهم بخصائص البيان أو نقصهم منها، فالمدعوون إلى معارضة القرآن إن افترضتهم أكفاء لنبي القرآن فسيأتون بمثل ما جاء به، وإن افترضتهم أعلى منه كعباً فسيأتون بأحسن مما جاء به، وإن افترضتهم دونه فلن يشق عليهم أن يأتوا بقريب مما جاء به، مع احتفاظ كل منهم بنمطه في الكلام ومنهجه في البيان، لكن شيئاً من هذه المراتب الثلاث لم يكن، فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن ولا بما يعلوه ولا بما يقرب منه، لا بالنسبة إليه كله، ولا بالنسبة لعشر سور، ولا بالنسبة لسورة واحدة من مثله، لا منفردين ولا مجتمعين ولو كان معهم الإنس والجن وكان بعضهم لبعض ظهيراً، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا أئمة البيان ونَقَدَة الكلام، وكانوا أهل إباء وضيم يحرصون على الغلبة في هذه الحلبة من معارضة القرآن.

أليس ذلك بدليل كافٍ على أن هذا الكتاب تنزيل العزيز الرحيم ولا يمكن أن يكون كلام محمد ولا غير محمد من المخلوقين؟

الشبهة الخامسة ودفعها:

يقولون: إن عجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن، ما هو إلا نظير عجزهم عن الإتيان بمثل الكلام النبوي وإذن فلا يتجه القول بقدسية القرآن وأنه كلام الله، كما لا يتجه القول بقدسية الحديث النبوي وأنه كلام الله!

وندفع هذه الشبهة:

أولاً: بأن الحديث النبوي إن عجز عامة الناس عن الإتيان بمثله، فلن يعجز أحد خاصتهم عن الإتيان ولو بمقدار سطر واحد منه. وإذا عجز أحد هؤلاء الممتازين عن مقدار سطر واحد منه نفسه، فلن يعجز عن مقدار سطر واحد من مماثله القريب منه، وإن عجز أن يأتي بسطر من هذا المثل وهو وحده، فلن يعجز عنه إذا انضم إليه ظهير ومعين أياً كان ذلك الظهير والمعين، وإن عجز عن هذا مع الظهير والمعين أياً كان، فلن يعجز الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً كما قال القرآن.

ذلك شأن الحديث النبوي مع معارضيه، أما القرآن الكريم فله شأن آخر، لأن أحداً لا يستطيع الإتيان بمثل أقصر سورة منه لا هو وحده ولا مع غيره ولو اجتمع من بأطرافها من الثقلين.

وإنما قلنا إن الحديث النبوي لا يعجز بعض الخواص الممتازين أن يأتي بمثله، لأن التفاوت بين الرسول وبلغاء العرب مما يتفق مثله في مجاري العادة بين بعض الناس وبعض في حدود الطاقة البشرية، كالتفاوت بين البليغ والأبلغ والفصيح والأفصح والحسن والأحسن، وليس هذا التفاوت بالأمر الشاذ الخارق للنواميس العادية جملة، بحيث تنقطع الصلة بين الرسول وسائر البلغاء جميعاً، لاختصاصه من بينهم بفطرة شاذة لا تمت إلى سائر الفطر بنسب إلا كما ينتسب النقيض إلى النقيض والضد إلى الضد كلا بل إن هذا القول باطل من وجهين:

أحدهما: أنه يخالف المعقول والمشاهد، لما هو معروف من أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة، ومن أن الطبائع الشخصية يقع بينها التشابه والتماثل، في شيء أو أشياء، في واحد أو أكثر، في زمن قريب أو أزمنة متطاولة، في كل فنون الكلام أو في بعض فنونه. **والآخر**: أنه يخالف المنقول في الكتاب والسنه، من أن البشرية قدر مشترك بين الرسول وجميع آحاد الأمة، ولا ريب أن هذه البشرية المشتركة وجه شبه يؤدي لا محالة إلى المماثلة بين كلامه وكلام من تجمعه بهم رابطة أو روابط خاصة على نحو ما قررنا. أليس الله يقول: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[1] ويقول: ﴿قُلْ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[(١)] ثم أليس الرسول يقول في الحديث الآنف: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ»[(٢)] إلخ، ويقول لرجل رآه فامتلأ منه فرقاً ورعباً: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أن ابن امرأة من قريش تأكل القديد»[(٣)].

ثانياً: أننا نجد تشابهاً بين كلام النبوة وكلام بعض الخواص من الصحابة والتابعين، حتى لقد نسمع الحديث فيشتبه علينا أمره: أهو مرفوع ينتهي إلى النبي ﷺ؟ أم موقوف عند الصحابي؟ أم مقطوع عند التابعي؟ إلى أن يرشدنا السند إلى عين قائله.

ومن أوتي حاسة بيانية يدرك هذا الشبه كثيراً كلما كان صاحب البيان المشابه تصله بالرسول صلات قوية، كتلك الصلات أو العوامل المتآخذة التي توافرت في علي بن أبي طالب، حتى صحت بيانه صحة نبوية، وجعلت نفسه في الكلام من أشبه الأنفاس بكلام رسول الله إن لم يكن أشبهها.

أما القرآن وما أدرك ما القرآن، فلن تستطيع أن تجد له شبيهاً أو نداً، لأن الذي صنعه على عينه لن تستطيع أن تجد له شبيهاً أو نداً! فكيف يقاس القرآن بالحديث في هذا المقام؟ أم كيف يجمع بينهما في قران؟

ثالثاً: أن القرآن لو كان كلام فمحمد كالحديث الشريف، لكان أسلوبهما واحداً؛ ضرورة أنهما على هذا الفرض ـ صادران عن شخص واحد، استعداده واحد ومزاجه واحد، لكن الواقع غير ذلك، فأسلوب القرآن ضرب وحده تظهر عليه سمات الألوهية التي تجل عن المشابهة والمماثلة، وأسلوب الحديث النبوي ضرب آخر لا يجل عن المشابهة والمماثلة، بل هو محلق في جو البيان يعلو أساليب الناس في جملته دون تفصيله؛ ولا يستطيع بحال أن يصعد إلى سماء إعجاز القرآن! فإن افترضت أنه عليه الصلاة والسلام كان له أسلوبان مختلفان: أحدهما يحضره ويتعمل له وهو ما سماه

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام، باب: (٢٠)، والحيل، باب: (١)؛ ومسلم في الأقضية، حديث: ٤، وأبو داود في الأقضية، باب: (٧)، والترمذي في الأحكام، باب: (١١)، والنسائي في آداب القضاة، باب: (١٣)، وابن ماجه في الأحكام، باب: (٥)؛ ومالك في الأقضية، باب: (١)؛ وأحمد ٦/ ٢٠٣.

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة: ٥/ ٦٩.

بالقرآن، والآخر يرسله ولا يحضره وهو ما سمي بالحديث: إن افترضت ذلك فانظر علاج الشبهة العاشرة في المبحث الثالث من هذا الكتاب (ص ٧٨ ـ ٨٤ من الجزء الأول) فإن فيه شفاء ما في نفسك، والله يكتب العافية لي ولك.

الشبهة السادسة ودفعها:

يقولون: إن أنباء القرآن الغيبية، لا تستقيم أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز الدالة على أنه كلام الله بل هو كلام محمد استقى أنباءه من أهل الكتاب في الشام وغيرها، أو رمى فيه الكلام على عواهنه فصادف الحقيقة اتفاقاً، أو استنبط الأنباء برأيه استنباطاً ثم نسبها إلى الله.

وندفع هذه الشبهة:

أولاً: بأن أكثر أنباء الغيب التي في القرآن لم يكن لأهل الكتاب علم بها على عهده.

ثانياً: أنه صحح أغلاطهم في كثير من هذه الأنباء فليس بمعقول أن يأخذها عنهم وهو الذي صححها لهم!

ثالثاً: أن أهل الكتاب في زمنه كانوا أبخل الناس بما في أيديهم من علم الكتاب.

رابعاً: أنه لو كان لهذه الشبهة ظل من الحقيقة لطار بها أهل الكتاب فرحاً، وطعنوا بها في محمد وقرآنه، ولطبل لها المشركون ورقصوا، لكن شيئاً من ذلك لم يكن، بل إن جلة من علماء أهل الكتاب آمنوا بهذا القرآن، ثم لم يمض زمن طويل حتى أعطت قريش مقادتها له عن إيمان وإذعان.

خامساً: أن محمداً كان رجلاً عظيماً بشهادة هؤلاء الطاعنين، وصاحب هذه العظمة البشرية يستحيل أن يكون ممن يرمي الكلام على عواهنه خصوصاً أنه رجل مسؤول في موقف الخصومة بينه وبين أعداء ألداء فما يكون له أن يرجم بالغيب ويقامر بنفسه وبدعوته، وهو لا يضمن الأيام وما تأتي به مما ليس في الحسبان.

سادساً: أنه على فرض رجمه بالغيب جزافاً من غير حجة، يستحيل في مجرى العادة أن يتحقق كل ما جاء به مع هذه الكثرة، بل كان يخطىء ولو مرة واحدة، إما في

غيوب الماضي أو الحاضر أو المستقبل، لكنه لم يخطىء في واحدة منها على كثرتها وتنوعها.

سابعاً: أن هذه الأنباء الغيبية ليست في كثرتها مما يصلح أن يكون مجالاً للرأي، ثم إن ما يصلح أن يكون مجالاً للرأي أخبر محمد ﷺ في بعضه بغير ما يقضي به ظاهر الرأي والاجتهاد، انظر ما ذكرناه تحت عنوان أنباء الغيب من هذا المبحث، وتأمل نبوءة انتصار الروم على الفرس وانتصار المسلمين على المشركين في وقت لم تتوافر فيه عوامل هذا الانتصار كما بينا سابقاً.

الشبهة السابعة ودفعها:

يقولون: إن ما تذكرونه من علوم القرآن ومعارفه وتشريعاته الكاملة، لا يستقيم أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، فهذا سولون اليوناني وضع وحده قانوناً وافياً كان موضع التقدير والإجلال والطاعة وما قال أحد إنه أتى بذلك معجزة ولا إنه صار بهذا التشريع نبياً.

وندفع هذه الشبهة:

أولاً: بأن البون شاسع بين ما جاء به القرآن وما جاء به هذا القانون السولوني اليوناني، ونحن نتحداهم أن يثبتوا لنا كماله ووفاءه بكافة ضروب الإصلاح البشري على نحو ما شرحنا سابقاً بالنسبة إلى القرآن الكريم.

ثانياً: أن الفرق بعيد بين ظروف محمد ﷺ التي جاء فيها القرآن وظروف سولون التي وضع فيها القانون، وهذا الفرق البعيد له مدخل كبير في إثبات هذا الوجه من الإعجاز بالنسبة إلى محمد ﷺ دون سولون: فمحمد كان أمياً نشأ في الأميين، أما سولون فكان فيلسوفاً نشأ بين فلاسفة ومتعلمين، بل هو أحد الفلاسفة السبعة الذين كان يشار إليهم بالبنان في القرن السابع قبل الميلاد المسيحي...

ومحمد ﷺ لم يتقلد قبل القرآن أعمالاً إدارية ولا عسكرية، بل جاءه القرآن بعد أن حببت إليه الخلوة والعزلة، أما سولون فقد تولى قبل وضعه القانون أعمالاً إدارية وعسكرية، وانتخب في عام ٥٩٤ قبل الميلاد (أرجوناً) أي رئيساً على الأمة بإجماع أحزابها، وقلدوه سلطة مطلقة ليغير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه

(زراكوت) من قبله، فوضع لهم نظاماً جديداً أقرته الأمة حكومة وشعباً وقررت اتباعه والعمل به عشرين سنين.

فهل يجوز حتى في عقول المغفلين أن تقام موازنة ويصاغ قياس مع هذه المفارقات الهائلة بين محمد الأمي الناشىء في الأميين، وسولون الفيلسوف والحاكم والقائد والزعيم والناشىء في أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة؟

ثالثاً: أين ذلك القانون الذي وضعه أو عدله سولون؟ وما أثره وما مبلغ نجاحه؟ بجانب قانون القرآن الجامع ودستوره الخالد وأثره البارز ونجاحه المعجز! ثم ما قيمة قانون وضع تحت تأثير تلك الظروف ومات وأصبح في خبر كان، بجانب القرآن الذي جاء في ظروف مضادة جعلته معجزة بل معجزات، ثم حَيَّ حياة دائمة لا مؤقتة، ولا يزال يزداد مع مرور العصور والقرون جدة وحياة وثباتاً واستقراراً، حتى أصبح كثير من الأمم المتحضرة تستمد منه، وقررت مؤتمرات دولية اعتباره مصدراً من مصادر القانون المقارن في هذا العصر، إلى غير ذلك مما أشرنا إليه قبلاً؟!

خلاصة

والخلاصة أن القرآن من أية ناحية أتيته، لا ترى فيه إلا أنواراً متبلجة وأدلة ساطعة على أنه كلام الله، ولا يمكن أن تجد فيه نكتة من كذب، ولا وصمة من زور، ولا لطخة من جهل. وإني لأقضي العجب من هؤلاء الذين أغمضوا أعينهم عن هذه الأنوار، وطوعت لهم أنفسهم اتهام محمد ﷺ بالكذب، وزعموا أن القرآن من تأليفه هو لا من تأليف ربه، مع أن الكاذب لا بد أن تكشف عن خبيئته الأيام والمضلل لا مناص له من أن يفتضح أمره وينهتك ستره:

ثوب الرياء يَشِفُّ عما تحته   فإذا التَحَفْتَ به فإنك عارِ

فيا أيها اللاعبون بالنار، الهازئون بقوانين العقل والمنطق، العابثون بمقررات علم النفس وعلم الاجتماع، الغافلون عن نواميس الكون وأوضاع التاريخ، الساخرون بدين الله وكتابه ورسوله، كلمة واحدة أقولها لكم فاعقلوها: معقول أن يكذب الكاذب ليجلب إلى نفسه أسباب العظمة والمجد، وليس بمعقول أبداً ـ حتى عند البهائم ـ أن يكذب الصادق الأمين ليبعد عن نفسه أعظم عظمة وأمجد مجد، ولا شيء أعظم من

القرآن ولا أمجد، فكيف يتنصل محمد ﷺ منه ولا يتشرف بنسبته إليه لو كان من تأليفه ووضعه؟!

يميناً لا حنث فيها، لو أن محمداً كان كاذباً لكذب في أن ينسب هذا القرآن إلى نفسه، على حين أنه ليس من إنشائه ورصفه، كيما يحرز به الشرف الأعلى، ويدرك به المقام الأسمى، لو كان ينال شرف ويعلو مقام بالافتراء والكذب! . ولكن كيف يكذب الصادق الأمين ومولاه يتوعد ويقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾[1].

ومن أعجب العجب أن نسمع أمثال تلك الشبهات الساقطة في محيطنا الإسلامي؛ على حين أن طوائف كثيرة من علماء الإفرنج في هذه العصور الأخيرة، قد أعلنوا بعد دراستهم للقرآن ونبي القرآن: إن محمداً كان سليم الفطرة، كامل العقل، كريم الأخلاق، صادق الحديث، عفيف النفس، قنوعاً من الرزق، غير طموع في المال ولا جنوح إلى الملك، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر والمباراة في تحبير الخطب وقرض الشعر، وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية، كالخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقاً فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنة، من رؤية ملك الوحي، ومن إقرائه إياه هذا القرآن، ومن إنبائه بأنه رسول من الله لهداية قومه وسائر الناس. ولقد وصل الأمر ببعض هؤلاء الباحثين الأجانب، أن أعلن هذه الحقيقة: لو وجدت نسخة من القرآن ملقاة في فلاة، ولم يخبرنا أحد عن اسمها ومصدرها، لعلمنا بمجرد دراستها أنها كلام الله، ولا يمكن أن تكون كلام سواه.

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤ ـ ٥٢.

كلمـة الختـام

أما بعد: فإن الكلام في إعـجاز القرآن طويل، وعلاج جميـع الشبهات التي لفقها أعداء الإسلام أطول، حتى لقد اطلعت على رسالة خبيثة أسموها «كتاب حسن الإيـجاز في إيـطال الإعجاز» فوجدتـها قد حملت من الأكاذيب والأراجيف، ومن اللف والدوران، أشكالاً وألواناً في الصحيفة الواحدة، وعقيدتي أن ما بسطناه في هذا المبحث وما يتـصل به، فيه الكفاية لمن أراد الهداية، ولو أننا استـقصينا وجوه الرد على مثل هذه الرسالة لاقتـضانا الأمر كتاباً كبيراً كاملاً، على حيـن أنها هي لا تزيد اثنتين وعشرين صفحة من القطع الصغير، ثم أنى لنا ذلك الرد المسهب الآن؟ وأزمة الورق طاحـنة، وأدوات الطـباعة عزيزة، حتى لقد اضـطررنا من أجل هذا، أن نقـف في الكتابة عند هذا الحد ـ بالطـبع ـ ولقد كنا نود أن نمضـي قدماً حتى نأتي على قصص القرآن وأمثاله وجدله، ولكن الضرورات تبيح المحظورات، وعسى أن يكون خيراً.

نحمده سبحانه أن كتب لنا التوفيق في هذه المحنة حتى انتهينا إلى هذه الغاية، ونسـتغفره ونتوب إليه من كل خطأ وزلل، ونسـأله القبول والمزيد والتعجيل بتفريج الكـروب، وأن يصلـح الحـال والمـآل لـنـا وللمسلميـن جميعـاً فـي مشـارق الأرض ومغاربها.

رجــاء

ونرجو من كل مطلع على هذه الكتاب أن يتفضل فيدعو لنا بالخير، وأن يزودنا بملاحظاته واستدراكاته، فإن الدين النصـيحة؛ والمؤمنون بخير ما تناصحوا.

وليعلم القارىء الكريم أننا لا نزعم لأنفسنا الكمال، ولكن قصارانا أننا نحاول الكمال، وأن نؤدي رسالتنا في هذه الحياة كما يجب، أما الكمال المطلق فهو لله تعالى

obeikandi.com

وحده. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾[١].
﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾[٢].

وصلى الله على أفضل خلقه، وخاتم رسله، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأصحاب الحقوق علينا أجمعين آمين آمين.

وكان الفراغ من طبع هذه المذكرات في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢ هـ الموافق لشهر يونيه ١٩٤٣ م.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٨٠ ـ ١٨٢.

ompeikandl.com

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر تحقيق محمد علي البجاوي القاهرة.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب، القاهرة.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني دار إحياء التراث العربي بيروت.
- الأعلام للزركلي الطبعة السادسة عام ١٩٨٤ م.
- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة المصرية العامة للكتاب.
- الأمالي لأبي علي العالي، تقديم عبد الجواد الأصمعي، دار الكتاب العربي بيروت، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٠ م.
- الأنساب للسمعاني، تقديم وتعليق عبد اللّٰه البارودي، دار الجنان بيروت ١٩٨٨ م.
- البخلاء، للجاحظ تحقيق طه الحاجري دار المعارف، مصر.
- البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي، دار المعرفة بيروت.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.
- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٤٨ م.

obeikandi.com

- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت عام ١٩٦٥.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محمد رياض الحلبي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة الطبعة الرابعة.
- تذكرة الحفاظ للذهبي، وتصحيح عبد الرحمٰن المعلمي اليماني، حيدر آباد. الهند، دائرة المعارف العثمانية الطبعة الأولى ١٩٧٥.
- الترغيب والترهيب للمنذري، تحقيق مصطفى محمد عمارة، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- تفسير ابن جرير الطبري ، دار المعرفة بيروت.
- تفسير البغوي، تحقيق خالد عبد الرحمٰن العك، دار المعرفة بيروت ١٩٨٦ م.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق د. يوسف عبد الرحمٰن المرعشلي دار المعرفة بيروت ١٩٩٣.
- التلخيص في القراءات الثمان، لأبي معشر الطبري، تحقيق محمد حسن عقيل الطبعة الأولى جـ
- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي.
- تهذيب اللغة للأزهري تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي القاهرة.
- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، نشر وتصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد القرشي تحقيق د. محمد علي الهاشمي، دار القلم دمشق ١٩٨٦ م.
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي القاهرة.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٨.

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، تحقيق عبد السلام هارون.
- الدارس في أخبار المدارس للنعيمي تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي دمشق ١٩٥٠ م.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني تصوير دار إحياء التراث العربي.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت دار الثقافة عام ١٩٧٠ م.
- سنن ابن ماجة، تحقيق خليل مأمون شيحا، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م دار المعرفة بيروت.
- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- سنن الدارقطني، تحقيق عبد اللّه هاشم يماني، دار المحاسن، القاهرة ١٩٦٦ م.
- سنن النسائي، تحقيق خليل مأمون شيحا، الطبعة الثالثة ١٩٩٤ دار المعرفة بيروت.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي إشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٢.
- السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة بيروت.
- السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة بيروت.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة ١٩٦٠ م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٩١٩ م.

ـ صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق خليل مأمون شيحا الطبعة الأولى ١٩٩٤ م دار المعرفة بيروت.

ـ صفة الصفوة، لابن الجوزي، تحقيق عبد الرحمٰن اللاذقي وحياة شيحا اللاذقي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.

ـ طبقات الحفاظ، للسيوطي، دار الكتب العلمية بيروت.

ـ طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٤ م.

ـ طبقات الشعراء، لابن سلام الجمحي، دراسة طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية بيروت.

ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، شرح محمود شاكر، دار المعارف مصر ١٩٥٢ م.

ـ طبقات القراء، لابن الجزري، تحقيق براجستراسر وبريستل، القاهرة مطبقة السعادة ١٩٣٢ م.

ـ طبقات القراء للداني.

ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر بيروت ١٩٦٠ م.

ـ طبقات المفسرين للداوودي، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣ م.

ـ طبقات المفسرين للسيوطي، طبعة ليدن عام ١٨٣٩ م.

ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق د. عمر تدمري، دار الكتاب العربي بيروت.

ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني تحقيق د. محمد قرقزان، الطبعة الأولى، دار المعرفة بيروت ١٩٨٨ م.

ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، مكتبة القدسي القاء.

ـ عيون الأخبار، لابن قتيبة، دار الكتب المصرية ١٩٦٣ م.

ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ١٩٥٩ م.

obeikandl.com

ـ الفهرست لابن النديم، دار المعرفة بيروت.

ـ فوات الوفيات للكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت.

ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر بيروت ١٩٦٥ م.

ـ الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق د. محمد أحمد الوالي مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٣ وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي بيروت.

ـ لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ـ المحاسن والأضداد، المنسوب للجاحظ، الجمالية. ١٣٣٠ هـ.

ـ مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعها، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٥ م.

ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، دار المعرفة بيروت.

ـ المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي، دار الآفاق الجديدة بيروت.

ـ مسند الإمام أحمد، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى ١٩٩١ م.

ـ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، . مصر نشر وتصوير، دار إحياء التراث العربي بيروت.

ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي تصحيح محمد أمين الخانجي الطبعة الأولى.

ـ معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مطبعة الترقي بدمشق ١٩٦١ م.

ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٢ م.

ـ المغرب في حُلى المغرب لابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. شوقي ضيف دار المعارف القاهرة ١٩٥٣ م.

ـ الملل والنحل للشهرستاني، تحقيق أ. مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٩٣ م.

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، تحقيق محمد علي البجاوي، دار المعرفة بيروت.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، دار الكتب المصرية ١٩٦٣ م.

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري تحقيق د. إبراهيم السامرائي مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٩.

- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري تحقيق محمد علي الصباع، دمشق ١٣٤٥ هـ.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني د. إحسان عباس بيروت ١٩٦٨ م.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق محمود محمد الطناحي القاهرة.

- الوافي بالوفيات، للصفدي، اعتناء هلموت ريتر وآخرون، نشر المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت.

obeikandl.com